

عبد الرحمن حسن جنبنة الميداني

قَوْلُهُ

التَّكْوِينُ الْأَمْثَلُ

لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

تَأْتِلَات

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الفلم
دمشق - بيروت

الإدارة - دمشق - حلبوني - ص ٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ملهم الصواب ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي أنزل عليه الكتاب ، وآتاه من لدنه الحكمة وفصل الخطاب ، وكلفه أن يبين للناس ما نزل إليهم .

وبعد : فإنّ تدبّر آيات الله في كتابه أشرف الأعمال العلمية واجلتها ، وأوضحها سبيلاً لمعرفة أصول دين الله ومراضيه وأدلتها . وقد أنزل الله علينا هذا الكتاب لتدبّر آياته ، لا لنهجره ، أو نتخذه مجرد ترانيم ، أو نتخذ منه تمانم نتعلقها .

وفي بيان واجب التدبّر أنزل الله على رسوله في مكة قوله في سورة (ص) :

كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

فهذا الكتاب قد أنزله الله إلى رسوله محمد ﷺ ، وهو مبارك لانتصب فيوض معانيه ، ولكن هذه المعاني المباركة الثرة لا يقتبس منها إلا الذين يتدبّرون آياته . فالغاية من إنزاله أن يتدبّر الناس

آياته ، ولكن ليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي ،
والافتخار بتحصيل المعرفة ، والتوصل إلى كشف المعاني للتعالي
بمعرفتها واكتشافها ، إنما وراء الفهم غرض التذكر والعظة ،
والعمل بموجب العلم . وهذا التذكر المقصود لا يحظى به إلاّ أولو
الآلباب ، وهم أهل العقول الحصيفة ، والأذهان النظيفة ، والقلوب
الشريفة .

والتدبر عند أهل اللغة هو التفكير . ولكنّ مادّة الكلمة تدور
حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها فالتدبر هو النظر في عواقب
الأمور وما تؤول إليه ، ومن هذا نستطيع أن نفهم أنّ التدبر هو
التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميهِ البعيدة .

ثم أنزل الله على رسوله في مكة قوله في سورة (المؤمنون) :

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ أَمْ لَمْ
يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٨٠﴾

ففي قوله تعالى : « أفلم يدبّروا القول ؟ » تأنيب شديد
للذين أعرضوا عن القرآن ، وهجروه ، ولم يعباوا به ولا بما جاء فيه ،
فلم يدبّروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالاته ، حتى يهتدوا
بهديها ، ويعملوا بما جاء فيها .

ثم أنزل الله على رسوله في المدينة قوله في سورة (النساء) :
أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾

لقد ورد هذا النص في معرض الحديث عن المنافقين ، وهم الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام ، ويعلمون الطاعة ، ويحضرون مجالس الرسول ﷺ ، ولكن قلوبهم غير مؤمنة ، وأفكارهم منصرفة معرضة عن كل ما يبين لهم ، ويبينون مع ذلك المخالفة والمعصية .

هؤلاء قد وضع الله تبارك وتعالى بين أيديهم ما يدلهم على الحق ، ويهديهم سواء السبيل ، ويقنعهم ، لو أرادوا لأنفسهم النجاة ، والسعادة الحقة ، وهي السعادة الأبدية ، فقال تعالى :
« أفلا يتدبرون القرآن » ولم يواجههم بهذا الخطاب إعراضاً عنهم في مقابل إعراضهم عن تدبر كتابه ، وتفهم آياته ، وفي الاستفهام الإنكاري هذا تلويح لهم على ترك التدبر ، ولكنه تلويح ليس من الدرجة القصوى ، فلعلهم يثوبون إلى رشدهم .

إنّ هذا التدبر الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة ، والمقرون بالاخلاص في الوصول إليها سوف يكشف لذوي الاستعداد منهم أنّ هذا القرآن حقّ كله ، وأنه منزل من عند الله عز وجل ، ما في ذلك ريب ، لأنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير مع الواقع والحقيقة « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

ثم أنزل الله على رسوله في معرض الحديث عن المنافقين أيضاً
قوله في سورة (محمد) :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَقْفَالًا ﴿٢٤﴾

فارتقى البيان بالمنافقين المعرضين عن تدبر القرآن من دعوتهم
إلى التدبر ، مع تلويهم على تركه بأسلوب الاستفهام الإنكاري ،
إلى توبيخهم على ترك التدبر ، وتأنيبهم بأن قلوبهم مقفلة ، فهي
لاتسمح بدخول هداية المعرفة إليها .

* * *

إن تدبر آيات كتاب الله ذات المعاني المباركة التي لا ينضب
معينها ، يحتاج إلى بصيرة منيرة وفهم ثاقب .

ويغترف من بحر كتاب الله مفترفون كثيرون ، وكلّ منهم
يغترف على مقدار وعائه ، وقد يصيب مصيبون في فهم دلالات
القرآن ، وقد يخطئ مخطئون ، وقد يتجنّى مغرضون .

وكان للمفسرين مناهج في التفسير ، وقد توصل كلّ منهم إلى
قواعد وضحت له في فكره ، فكانت هادية له في تفسيره ، سواء
أذكر هذه القواعد وإبانها منهجاً له ، أو لم يذكرها ، لكنّها كانت
ماثلة في تصوّره ، والباحث يلاحظ ذلك من خلال ماقدّم في تفسيره
من فهم في كتاب الله . وتابع كثير منهم بعضهم بعضاً ، واعتنى

بعضهم بجمع الأقوال والآراء ، واعتنى بعضهم بالمتن اللغوي ،
وبعضهم بالأسلوب البياني ، وبعضهم بالمستنبطات الفقهية ، وبعضهم
بالمسائل الفلسفية ، وبعضهم بالظواهر الكونية وما في القرآن من
إشارات إليها .

وخلال ممارستي الطويلة للتدبر في القرآن العظيم ، ومطالعتي
لتفاسير المفسرين على اختلاف مناهجهم ، تكشف لي جملة قواعد
هادية لمن أراد أن يتدبر كلام الله بصورة فضلى ، فأنا أكتبها لمن
شاء أن ينتفع بها ، فقد وجدت بالممارسة أنها ذات نفع عظيم للمتدبر
وتصلح منهجاً يحتذيه المتدبرون للقرآن .

وما أظن أنني استقصيت كل القواعد التي يمكن التوصل
إليها ، إلا أن ماتوصلت إليه - بفضل الله وإلهامه - يعتبر مهماً
جداً ، وينبغي للمتدبر ملاحظته .

وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد ، وشرحتها بالأمثلة ،
وقد أكون في بعضها مسبقاً إلى كتابته أو الإشارة إليه ، وقد يكون
بعض المفسرين قد وضع في تصوّره مراعاة بعضها ، إلا أنني لم
أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ماتدبر من كلام الله ، كما
أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين .

وأمام الباحثين المتدبرين لكتاب الله طريق طويلة ، قد لا يصلون
إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكد ، إلا أنهم - من دون شك -

سيكتشفون بالبحث كنوزاً عظيمة من كنوز هذا التنزيل الرباني
العظيم .

والله أسأل أن ينفع بهذه الرسالة ، وأن يجعلها هادية
للمتدبرين ، إنه سميع مجيب .

مكة المكرمة في ٢ رمضان ١٣٩٩ هجرية
و ٢٦ تموز ١٩٧٩ ميلادية

عبد الرحمن حسن حنكه الميداني

★ ★ ★

القاعدة الاولى

« حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة

وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن »

على متدبر كتاب الله أن يبحث عن ارتباط المعنى المستفاد من جملة قرآنية بما تفرق في القرآن من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد ، وبمعاني الآية التي هي منها ، والسورة التي هي فيها .

كل معنى جزئي مستفاد من جملة قرآنية له ارتباط بما تفرق في القرآن من معانٍ تلتقي معه في موضوع واحد ، وله ارتباط آخر وثيق بمعاني الجمل الأخرى التي اشتملت عليها الآية ، كما أن الآية ذات ارتباط وثيق بوحدة موضوع السورة .

١ - فالارتباط الاول - وهو ارتباط معنى الجملة القرآنية بما تفرق في القرآن من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد - يتطلب من المتدبر للنص القرآني أن يتتبع ما في القرآن من نصوص ذات دلالات تشترك ولو بوجه من الوجوه مع المعنى الذي يبحث عنه في موضوع واحد ، ليكتشف موقع هذا المعنى من جملة الموضوع .

فإِذَا أَن يَكْتَشِفُ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الْجَزْئِيَّ يَمَلَأُ فَرَاغَ حَبَّةٍ فِي عَقْدِ الْمَوْضُوعِ ، حَتَّى يَتَكَوَّنَ مِنْهُ وَمِنْ سَائِرِ الْمَعَانِي الْمَوْزَعَةِ فِي الْقُرْآنِ حَوْلَ ذَلِكَ الْمَوْضُوعِ مَوْضُوعٌ تَامٌّ كَامِلٌ الْعُنَاصِرُ •

وَإِذَا أَن يَكْتَشِفُ أَنَّ مَعْنَى مُكَرَّرٍ إِلَّا أَنَّ الْمُنَاسِبَةَ اسْتَدَعَتْ تَكَرُّرَهُ فِي مَوْضُوعِ السُّورَةِ ، لِأَنَّهُ ذُو ارْتِبَاطٍ بِجَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهِ بِالْمَعَانِي الْأُخْرَى الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا الْآيَةُ ، أَوْ بِمَعَانٍ أُخْرَى جَاءَتْ فِي السُّورَةِ ، أَوْ بِوَحْدَةِ مَوْضُوعِ السُّورَةِ ، مَعَ مِلَاحَظَةِ أَنَّ الْغَرَضَ التَّرْبُوعِيَّ أَوْ التَّعْلِيمِيَّ اقْتَضَى إِيرَادَهُ فِي الْمَوْضُوعِ الَّذِي تَعَالَجَهُ الْآيَةُ أَوْ تَعَالَجَهُ السُّورَةُ •

وَعَلَى الْمُنْتَدَبِ أَنْ يَبْحَثَ وَيَتَأَمَّلَ حَتَّى يَكْتَشِفَ الْمُنَاسِبَةَ ، أَوْ الْغَرَضَ التَّعْلِيمِيَّ أَوْ التَّرْبُوعِيَّ ضَمْنَ الْمَنْهَجِ التَّعْلِيمِيِّ التَّرْبُوعِيِّ الْقُرْآنِيِّ الْعَامِّ •

٢ - وَالْإِرْتِبَاطُ الثَّانِي - وَهُوَ إِرْتِبَاطُ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ بِمَعَانِي سَائِرِ الْجُمَلِ فِي الْآيَةِ وَفِي السُّورَةِ - يَتَطَلَّبُ مِنَ الْمُنْتَدَبِ أَنْ يَبْحَثَ عَنِ النَّسَقِ الَّذِي يَكْشِفُ عَنِ التَّلَاحِمِ أَوْ التَّنَاسُبِ بَيْنَ مَعَانِي جُمَلِ الْآيَةِ ، وَعَنِ التَّلَاحِمِ أَوْ التَّنَاسُبِ بَيْنَ مَعَانِي جُمَلِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَوَحْدَةِ مَوْضُوعِ السُّورَةِ •



إِنَّ مِثْلَ الْجُمْلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ مَعَانٍ وَدَلَالَاتٍ كَمِثْلِ حَبَّاتٍ نَفِيسَةِ الْجَوْهَرِ ، ظَهَرَتْ فِي عَقْدٍ مُتَكَامِلٍ تَمَثِّلُهُ السُّورَةُ

القرآنية • أو نُضدّت في قطعة نادرة مصوغة أبدع صياغة ، من قطع الحليّ ، مع التناسق التامّ والبديع •

ويلاحظ أنّ حبّات العقد أو جواهر قطعة الحليّ ليس من الضروري أن تكون كلّها من صنف واحد كاللؤلؤ مثلاً ، إلاّ أن الناظم أو المنضّد لها قد جعل لها منطلقاً واحداً أو مركزاً ترجع إليه •

والتوزيع في الحبّات أو الجواهر النفيسة توزيع فني بديع • والسلك الناظم لها أو الأرضيّة الجامعة لها أمرٌ يُدرّك بالفكر الثاقب ، وقد لا يلاحظ في اللفظ ما يدلّ عليه • وذلك كما ندرك التناسق والترابط في الأشكال الهندسية التي تنضّد على وفقها مجموعة من أنفس الحجارة الكريمة في قطعة من الحليّ ، نادرة الصياغة ، بديعة التنضيد •

ويدلّ على التناسق والترابط والأشكال الهندسية النظام المحكم ، والألوان ، والطبوع ، والشكل الهندسي لكلّ قطعة ، والأشعة الضوئية التي تبثّها الحجارة الكريمة ، والتوزيع المتناسق بشكل عامّ ، ولو كان بعض الحجارة مفرداً لم يتكرّر من جنسه حجر آخر ، ولو لم يظهر من الأرضية الحاملة لها شيء ، حتى ولو كانت موزّعة في فضاء ، أو فيما لالون له • إنّ هذه كلّها لتوحي بالترابط التامّ •

وعلى المتدبّر عميق التفكير أن يكتشف ويحلّل ويرز
عناصر الترابط ، ويضع أسهم التناسق والترابط بين هذه النفائس
الموزّعة أبدع توزيع •

وكما نكتشف أشكالاً هندسية لاتحصى لمقطع من النجوم
في رقعة من السماء ، كذلك خطوط الترابط التي يستطيع المتدبّر
عميق التفكير أن يلاحظها ذهنًا بين الجمل القرآنية ، داخل كل
آية وكلّ سورة من سور القرآن •

وإهمال تدبّر هذا الأمر العظيم ، وعدم وضعه موضع العناية
التامة والملاحظة المستمرة ، يفوت على متدبّر كلام الله خيراً كثيراً ،
ومعاني جمّة ، ويخفي عنه وجوه إعجازٍ جليّة ، وقد يجنح به عن
فهم المراد من الجملة أو الآية التي يتدبّرها •

وقد يكون للجملة القرآنية التي تحمل معنىً معيناً عامّاً أو
خاصّاً عدد من الارتباطات من عدّة جوانب منها ، بعدد من الجمل
القرآنية في السورة ، وبعدد آخر من الجمل التي تشترك معها في
موضوع عام عبر القرآن كلّّه •

فمن قواعد التدبّر الأمثل تدبّر هذه الارتباطات المختلفة ،
سواءً أظهر فيها الرابط لفظاً أو لم يظهر •

ويتأكّد على المتدبّر أن يكتشف الروابط الفكرية بين الجمل
المقرّنة ، ولو كان كلّ منها يتحدّث عن حقيقة من الحقائق منفصلة

في الظاهر عن الحقيقة الاخرى التي جاءت مقترنة بها في اللفظ
مثال ذلك قول الله تعالى في سورة (الزمر) :

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ
عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١٠١﴾

إنّ الاقتران بين ظاهرة الليل والنهار ، وبين تسخير الشمس
والقمر ، يدلّنا على أنّ نوعاً من الترابط موجود في الواقع .

والبحث العلمي في الكون قد أثبت الترابط بين الشمس
والقمر والأرض والجريان ، ومعلوم أنّ الجريان فيه حركة دوران
الشيء حول نفسه ، ومسير الشيء في مسارٍ . فالليل والنهار
ظاهرتان لنظام سير الأرض بالنسبة إلى الشمس .



ولا يخفى ارتباط الجملة أو الجمل القرآنية بسائر عناصر
النصّ التي هي جزء منه إلّا في نحو « التربية المعترضة » كترية
الله لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن . فقد جاءت هذه التربية معترضة
في سورة (القيامة) كما يربي المعلم الطالب ضمن درس من العلم
فينهاه أو يأمره ، حول واجب من واجبات المتعلّم ، أو طريقة من
طرق التعلّم ، ثمّ يستمرّ معه في متابعة درسه الذي يلقيه عليه .
ويحسن هذا الاعتراض حينما يراد تحقيق غرض تربوي به ،

أو حينما تدعو الحكمة التربوية أن تكون التربية عند حدوث ما ينافي المطلوب فيها •

والجملة الاعتراضية التربوية الواردة في سورة (القيامة) قد بقيت قرآناً يتلى ، لتكون مثلاً للتربية المعترضة ضمن دروس العلم •

ولذلك لا نجد مناسبة فكرية بين قول الله تعالى لرسوله في سورة (القيامة) :

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ (١٧) فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ (١٩)

وبين ما سبقه من السور ، وما جاء بعده ، لكننا نجد التناسب والترابط تامين بين كل عناصر السورة ومعانيها ، باستثناء هذه المعترضة •

وحينما نكتشف الغرض التربوي تتضح لنا روعة البيان القرآني ، الذي أثبت لنا هذه التربية ، خلال السورة التي حدثت فيها حادثة التعجل من الرسول ﷺ ، وتحريك لسانه بالقرآن على سبيل المسابقة للوحي بما أعطاه الله من نور في فؤاده •

وقد امتثل الرسول ﷺ فالتزم بما أمره الله به ، ولكن يبدو أنه صار كلما نزلت عليه آية أو جملة آيات يحاول تلاوتها ليحفظها

وَيَتَعَجَّلْ بِذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْتَهِيَ الْوَحْيُ مِنْ تَنْزِيلِ النُّجْمِ الَّذِي
يَنْزَلُ عَلَيْهِ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ (طه) :

وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ
زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١﴾

ولم يأت هذا النصّ معترضاً في سورة (طه) ، بل جاء محكم
الارتباط بعناصر السورة ، وسورة طه مكية قد نزلت بعد سورة
(القيامة) بثلاث عشرة سورة .



إنّ التزام هذه القاعدة من قواعد التدبّر لكتاب الله ، يقدم
للمتدبر نفعا عظيماً ، ومفاهيم جليّة .

وفي بحوث مختلفة في العقيدة والأخلاق والعبادات وغير ذلك
من موضوعات ، حاولت ما تيسّر لي التزام هذه القاعدة ، فمن
أراد أن ينظر في هذه البحوث ليأخذ منها أمثلة تطبيقية ، فسيجد
فيها أمثلة كافية لاكتساب القناعة ، حتى يتخذ هذه القاعدة منهجاً
له في بحوثه القرآنية .

وبعض هذه المكتوبات التي كتبتها منشور في كتب ، والآخـر
لم ينشر بعد .

ألهمنا الله جميعاً السداد والصواب ، وفتح لنا أبواب فهم
كتابه المجيد ، إنه سميع مجيب .



القاعدة الثانية

« حول وحدة موضوع السورة القرآنية »

على متدبر كتاب الله أن يضع نصب عينيه ضمن أهداف بحثه وتدبره التوصل إلى اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية ، وهذا يستدعي منه أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثاً كلياً شاملاً للسورة ، ويتبّع ارتباط آياتها ، ومعاني جملها ، بهذا الموضوع ، أو بما تفرّع عنه من عناصر ، وما اتصل به من موضوعات جزئية ، وأحكام وشواهد .

فلهذا البحث فوائد جمّة يتوصّل إليها ذوو الأهلية والكفاية لهذا العمل من أهل الاستنباط ، وبإكتشاف الترابط قد تُصحّح مفاهيم ، وترجّح تفسيرات ، لأنّ ترابط المعاني يقتضيها أو يرجحها أكثر من غيرها .



بالتبّع الطويل اهتديت — بتوفيق الله — إلى أنّ السورة القرآنية متعانة الآيات والجمال في الآية حول موضوع كلي واحد ، كما اهتدى آخرون معاصرون إلى هذه الحقيقة بفضل الله إذ أدمنوا النظر الثاقب في كتاب الله .

واستبان لي أنّ مثل السورة من القرآن كمثل شجرة من الأشجار البديعة المثمرة ، أو كمثل كائن حيّ من الكائنات الراقية ،

فالشجرة مهما اختلفت صفات أجزائها مجتمعة على أصل واحد ،
ومشتقة منه ، والكائن الحيّ مهما اختلفت صفات أعضائه مجتمع
على أصل واحد ومشتقّ منه •

ووحدة موضوع النصّ التعليمي التربوي الرفيع لاتعني
انحصار الكلام في جزئية فكرية ، ومتابعة البحث في هذه الجزئية
من كل الجوانب المتعلقة بها ، فهذه ليست من وظائف النصوص
الرفيعة ، وإنما هي من وظائف فصول العلوم ، والبحوث
الاختصاصية الدقيقة التي قلّما يرافقها بلاغة عالية ، وأدب كلاميّ
رفيع ، وتوجيه تربوي ، وأمر ونهي ، وترغيب وترهيب ، وموعظة
وتذكير •

بل يكفي في وحدة الموضوع للنصّ التعليمي التربوي
البلغ أن يهدف إلى كلفة من الكليات الكبرى الفكرية ، وأن
تكون فقراته وأفكاره العامة مرتبطة بهذه الكلفة ، مشتقة منها ،
أو موصولة بها بوجه من الوجوه ، والغرض التعليمي أو التربوي
أو البياني البليغ هو الذي استدعى إيراد الفكرة ضمن الموضوع
الكلفي الذي يدور حوله النصّ •

ولدى البحث الدقيق المتعمّق نلاحظ أنّ السورة القرآنية
تشتمل على وحدات معانٍ متماسكة تشبه حلقات مترابطة ، مشمولة
بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها ومتعلّقة بها ، ولا يشترط في كلّ
حلقةٍ موجودة على مسار خطّ النصّ أن تكون مرتبطة بالتّي قبلها

مباشرة ، كما نعرف في حلقات السلسلة التي هي كالجبل ، بل قد يكون الارتباط مباشرة بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع ، أو بحلقة دونها قد سبقت ، وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رصف الحلقات • وخفاء الارتباط إنما يأتي من ملاحظة أن وحدة موضوع السورة يشبه السلاسل المستطيلة كالجبال ، إذ يعمل المتدبر على انتزاع ارتباط ضعيف قد يكون وهمياً أحياناً بين كل حلقة والتي سبقتها في الرصف الكلامي ؛ مع أن الأمر ليس كذلك ، وينبغي له حتى يصل إلى ما ينشد أن يصحح أصل تصوره لحقيقة الترابط ، ويستطيع أن يقرّب ذلك إلى ذهنه بأن يرسم دائرة كبرى ثم يربط بها حلقة ، ثم ينظر في الحلقات التالية ، هل يربطها بالحلقة الفرع ، أو يربطها بالدائرة الكبرى الأصل ، ثم يسير هكذا إلى كل الحلقات ، ويبحث عن ارتباطها بالدائرة الأصل أو بالحلقات الفروع • وبعد البحث العميق والتأمل الدقيق ، لا بد أن يكتشف نسيجاً عجباً بديع الصورة ، ويظهر له به رائعة من روائع إعجاز القرآن •

إنّ السورة القرآنية من الناحية البيانية والمعاني والدلالات التي اشتملت عليها ، بمثابة حلقة أدبية رائعة فذة ، فهي ذات موضوع كلي واحد ، إلا أن وحدة الموضوع في كل سورة قد لا تستبين بالنظرة الجزئية ، ولا بالنظرة السطحية التي تمرّ مرّاً سريعاً على آياتها ، وقد لا يتنبه لها الكثيرون ، تأثراً بالاتجاه السائد

عند المفسرين القدماء ، الذين لم يوجّهوا عناية كبيرة لهذا الأمر ، رغم خدماتهم الجليلة التي قدّموها لهذا الكتاب الرباني العظيم .
 إلا أنه كتاب معجز ، لا تنفى أعاجيبه ، وسيظلّ فيه دقائق معجزة خفية يظهر منها في كل حين من الدهر ما لم يكن قد ظهر من قبل ، ليظلّ على كرّ الدهور كما أراد الله له معجزة البيان الخالد ، والتعليم الحقّ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولو كره المعاندون والجاحدون ، والكافرون ، ولو كره الحاسدون .

وتظهر وحدة موضوع السورة لكل باحث له بعض عناية بتفسير القرآن وتدبّر دلالته ، في قصار السور ، وفي المفصل ، وفي بعض الطوال .

ومن الأمثلة الواضحة سورة (ق) وسورة (يوسف) وسورة (الرحمن) وسورة (الواقعة) وغيرها كثير مما تظهر فيه وحدة موضوع السورة بأدنى تدبّر .

وقد نظرت في سورة (الرعد) وكتبت حولها دراسة فكرية وأدبية ، وتتبع مضامينها ، فتبيّن لي أنها ذات موضوع واحد ، وأن آياتها متشابكة متعاقبة حول هذا الموضوع ، وأن ما اشتملت عليه من معانٍ جزئية هي مشتقة من الموضوع الكلّي للسورة ، أو موصولة به بوجه من الوجوه . وظهر لي أن آياتها وما اشتملت عليه من معانٍ كأغصان الشجرة الواحدة وفروعها وما عليها من أوراق وأفنان وأزهار وثمار ، أو كأعضاء الكائن الحيّ السويّ

المعتدل • وقد وجّهت العناية فيما كُتبت حول هذه السورة لبيان الترابط بين المعاني ، وبيان صلة هذه المعاني بموضوع السورة الرئيسي ، وبيان تسلسلها حتى الغاية المرسومة في الأهداف التعليمية والتربوية والتوجيهية التي أنزلت السور من أجلها •

ونظرت نظرة عامّة في سورة (البقرة) فوجدتها كذلك إلا أنني حتى الآن لم أكتب حولها دراسة تكشف وحدة موضوعها ، وترابط معاني جملها ، ضمن حليّة أدبيّة رائعة كبرى •

فعلى متدبّر كلام الله أن يوجّه عنايته ما استطاع ، لاكتشاف وحدة موضوع السورة القرآنية ، وارتباط المعاني التي اشتملت عليها جملها بهذا الموضوع الكلّي ، فعسى أن يلهمه الله الصواب ، ويكتشف ما يقدم به فعّالّ الذين يتلون كتاب الله ويتدبّرون آياته • فبعد بحوث كثيرة ومناظرات علمية تنشد الحقّ ، قد يتوصل المتدبّرون إلى نتائج جليّة في فهم كتاب الله •



القاعدة الثالثة

« حول أوجه النصّ التي يهدف إليها »

من الخير لمتدبّر كلام الله أن يتفكّر فيما يمكن أن يشتمل عليه النصّ القرآني من أوجه ، وما يهدف إليه كلّ وجه منها من أغراضٍ بيانية وتربوية •



إنّ من الظواهر في النصوص الأدبية البليغة الرفيعة أن النصّ قد يكون موجّهاً لعدة أهداف ، وهذه الأهداف كلّها مقصودة من النصّ ، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب به جماعة ذات فئات مختلفة ، وعناصر متباينة •

فمن أمثلة النصّ ذي الهدف المزدوج أن يوجّه ذو سلطان عامّ تهديده الشديد للذين يخالفون أوامر مبعوث من قبله ، للقيام بمهمّة من المهمّات السلطانية • إننا نلاحظ في النصّ التهديدي هدفين معاً :

أحدهما : تهديد الذين يخالفون •

ثانيهما : تقوية نفس المبعوث ، وشدّ أزره وشجذ همته للقيام بما بُعث به على أفضل وجه •

وقد يكون النصّ مثلث الهدف ، أو أكثر من ذلك ، وكل صاحب علاقة يأخذ من النصّ ما يناسب حاله • ويكثر هذا في النصوص القرآنية ، فقد يكون النصّ تهديداً وتوعداً للكافرين ، ووعداً للمؤمنين ، وتربية وتأديباً وتسليّة للرسول صلوات الله عليه • وعلى المتدبّر أن يضع في ملاحظته عند بحثه عن أوجه النصّ أن القرآن موجه بصفة عامّة للناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم ومستوياتهم الفكرية ، وعلى اختلاف شعوبهم •

فالقرآن فيه تعليم وتوجيه وتربية للجميع ، من الرسول أول مبلغ به ، وأول مؤمن به ، والمأمور بأن يبلغه للناس ، حتى أدنى الإنس والجن ، وحتى أعتى كافر به ، وأشد معاند لما جاء فيه •

وكل فردٍ من الذين أنزل القرآن إليهم من الإنس والجنّ ، يجد في بيانات القرآن ما يناسبه ويلئم حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية ، في نصّ أو في آخر ، وبوجه من وجوه النصّ الواحد أو بوجه آخر • والبحث المتعمّق المتأنّي قد يكشف ذلك •



القاعدة الرابعة

((حول بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية))

على متدبر كتاب الله أن يضع في اعتباره لدى تدبر نصّ منه ملاحظة الأمور التالية :

الأول : تصوّر العصر الاسلامي الأول ، وواقع حال الذين كانت تنزل عليهم الآيات القرآنية لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم ، ويدخل في هذا تصوّر بيئتهم العامة ، ومفاهيمهم التي كانت سائدة بينهم بوجه عام * .

الثاني : تصوّر الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كانوا عليها حين نزول الآيات الموضوعة للدراسة ، وذلك بشكل خاص * .

الثالث : تصوّر الظرفين الزماني والمكاني اللذين أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبر والدراسة * .

* * *

١ - إنّ تصوّر العصر الاسلامي الأول ، وتصور واقع حال الذين كانت تنزل عليهم الآيات القرآنية لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم ، وتصور بيئتهم العامة ، ومفاهيمهم التي كانت سائدة

بينهم ، من الأمور التي تقدّم نقعاً جليلاً للمتدبر ، إذ هي تبصره
بالمناخ الذي نزل فيه النص ، وهذا يهديه إلى مفاهيم هي أقرب
إلى دلالة النص من غيرها • فكثيراً ما يقع الباحث عن معنى نص
في الخطأ ، لأنه فهم النص وهو يضع في اعتباره واقع حال المجتمع
الذي يعيش فيه ، والبيئة المحيطة به ، لا واقع حال المجتمع والبيئة
الذي نزل النص لمعالجته بالتعليم والتوجيه والتربية •

٢ - وكذلك تصور الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية
التي كان عليها الذين تنزلت عليهم الآيات الموضوعة للدراسة ،
فهو يقدم نقعاً جليلاً للمتدبر •

ويدخل في هذا تصور حالات السلم والحرب ، والأمن
والخوف ، وسعة الرزق والجوع ، والنصر والهزيمة ، والإيمان والكفر
والنفاق ، والطمع واليأس ، والمسرة والحزن ، والصفاء والكدر ،
ونحو ذلك من الأحوال النفسية التي يستدعي كل منها ما يلائمه
من البيان التعليمي والتوجيهي والتربوي •

ويدخل أيضاً تصور حالات الذكاء والغباء ، وطمأنينة
الفكر واضطرابه ، والعلم والجهل ، ونحو ذلك من الأحوال الفكرية
التي يستدعي كل منها ما يلائمه من البيان التعليمي والتوجيهي
والتربوي •

ويدخل أيضاً تصور الحالات الاجتماعية ، كالبداءة
والتحضر ، والرفعة والضعف ، والقوة والضعف ، والقيادة والافتقار ،

ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كل منها ما يلائمه
من البيان .

٣ - وكذلك تصوّر الظرفين الزماني والمكاني اللذين
أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبر والدراسة ، فهو يقدم
للمتدبر نقعاً جليلاً ، ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة ، وأقرب إلى
المراد ، وذلك لأنّ من الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف
الزمانية أو المكانية ، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفاً آخر . إذ ما يلائم
في مواسم الأعياد ، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد ،
وما يلائم في مواطن تأدية النسك قد لا يلائم في أسواق البيع
والشراء ، وما يحلو في مجامع الأفراح قد يكون قبيحاً في مجامع
المآتم ، وهكذا .



القاعدة الخامسة

« حول التفسيرات الجزئية والمعنى الكلي »

مهما أمكن جمع التفسيرات الجزئية في معنى كلي فهو
الأولى بأن يكون منهج المتدبر لكتاب الله •

* * *

إذا ورد في تفسير نصّ ذي معنى كليّ تفسيرات هي من قبيل
التطبيقات أو التفسيرات الجزئية التي تندرج جميعها وغيرها تحت
المعنى الكليّ الذي يشملها ، وهذا المعنى الكلي بدلالته الشاملة
صحيح لا ردّ له ، تشهد لصحته دلالة نصوص قطعية أخرى ؛
فالأولى حمل النصّ على المعنى الكليّ العام ، ولا داعي لتخصيصه
بواحد من المعاني الجزئية التي جاءت في التفسير ، إلاّ أن يكون
السياق يقتضي تخصيصه حتماً ، ولم يرد النصّ على أنه قاعدة
كليّة عامة وما في السياق أحد أفرادها •

فكثيراً ما يأتي في التفسير تفسير المراد من الكلمة أو الجملة
القرآنية بعدّة وجوه ، ولدى التمهّص والتحليل والتأمل يظهر
أنّ هذه الوجوه هي من قبيل التطبيقات الجزئية أو المعاني الجزئية
لدلالة الكلمة أو الجملة القرآنية ذات المعنى الكليّ العام الذي

يشملها جميعاً ، فهي تصلح لأن تدلّ عليها جميعاً دون تخصيص
بواحد منها أو أكثر ، وما جاء عند المفسرين — ولو كان مأثوراً
عن الصحابة أو التابعين — إنما هو تفسير للنصّ القرآني ببعض
ما يدلّ عليه من جزئيات أو أفراد •

والمنهج الأمثل لتدبر كلام الله هو أن يبقي اللفظة أو الجملة
القرآنية على دلالتها الكلية ومعناها الشامل ، حتى تدلّ على
كلّ الجزئيات والأفراد والصور التي يمكن أن تكون مشمولة
بها ، ما لم يقدّم الدليل على تخصيص ببعض هذه الجزئيات
أو الأفراد أو الصور دون بعض •

وعلى هذا تجمع أقوال المفسرين مهما اختلفت ، وتعتبر مدلولاً
عليها بالنصّ في شموله ، ويظلّ المعنى الكلّي للنصّ شاملاً كلّ
ما يمكن أن ينطبق عليه من جزئيات أو صور أو أفراد ، دون
تخصيص ببعضها إلاّ بدليل مخصّص •

فمن أمثلة ذلك ما يلي :

أ — جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة (التوبة) :
[انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً] عدّة وجوه :

١ — انفروا نشيطين وغير نشيطين •

٢ — انفروا في اليسر والعسر •

٣ — انفروا أغنياء أقوياء وفقراء ضعفاء •

٤ - انفروا مهازيل وسمافاً •

٥ - انفروا خفافاً من السلاح وثقالاً منه •

٦ - انفروا ركباناً ومشاةً •

٧ - انفروا خفافاً لقلّة عيالكُم وثقالاً لكثرتهم •

٨ - انفروا شبّاناً وشيوخاً •

٩ - انفروا صحاحاً ومرأضاً •

ونقول : ما دام اللفظ يحتمل كلّ هذه التفسيرات بدلالته الكلية فلا داعي لتخصيص دلالته بواحد أو عدد منها ، والأولى حملة على كلّ ما ينطبق عليه معنى الثقل ومعنى الخفة ، من الأمور التي ينشط معها المؤمن للخروج إلى الجهاد في سبيل الله ، والأمور المشبّطة عنه ، دون تخصيص ببعض الجزئيات التي ينطبق عليها معنى الثقل الكلّي ، ومعنى الخفة الكلّي •

ب - وجاء في تفسير قول الله تعالى في سورة (البقرة) :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴿١٢١﴾

عدّة وجوه :

١ - قال الزجاج : المراد من السفهاء هنا مشركو العرب •

٢ - وقال مجاهد : هم أحبار يهود •

٣ - وقال السدّي : هم المنافقون •

قال ابن كثير : والآية عامة في هؤلاء كلهم والله أعلم •

أقول : وما قاله ابن كثير أعمّ وأشمل ، إذ لا موجب للتخصيص • ومن المعلوم المجرب أنّ الكافرين على اختلاف أصنافهم ، متى أطلق بعضهم شبهة على الاسلام ردها سائرهم ، وتناقلها بعضهم عن بعض ، فيكونون جميعاً قائلين لها ، ولو لم يكونوا كلهم مبتكرين لها •

وهذه المقالة الواردة في الآية : « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » قد يكون اليهود أوّل من أطلق فكرتها ، ثمّ ردّها المنافقون نقلاً عنهم ، ثمّ ردّها المشركون ، فالجميع قائلون لها •



القاعدة السادسة

((حول البحث في معاني الكلمات القرآنية))

على متدبر كتاب الله بتعمق أن يبحث في معاني الكلمات الواردة فيه بحثاً علمياً لغوياً ، بالرجوع إلى أمّتهات المعاجم اللّغوية . وبالتبصر في مختلف معاني الكلمة واستعمالاتها الحقيقية والمجازية في لغة العرب إبان نزول القرآن . وبالنظر فيما ورد من تفسير مآثور والتقيّد به إذا صحّ عن النبي ﷺ . وبالنظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة وفي تفسير المراد منها . ثمّ يأتي بعد ذلك التبصّر الدقيق بمعنى النصّ القرآني بشكل عامّ ، مع ملاحظة سياقه في السورة . ويحسن مع ذلك النظر في مختلف المواطن التي استعملت فيها الكلمة في القرآن ، فهو قد يكشف للمتدبر الدلالات الأساسية للكلمة في الاستعمال القرآني ، هل دلالتها تدور حول المعنى اللّغوي ، أو حول المعنى في الاصطلاح الشرعي ، ومع الحقيقة أو مع المجاز ، أو متنوّعة . وعلى المتدبر أن يلمّ بالمفاهيم الإسلامية المتعلقة بموضوع النصّ ، ثمّ بالمفاهيم الأخرى ، مع اطلاع على مختلف النصوص حول الموضوع .

وأخيراً للمتدبّر الكفاء أن يختار المعنى المراد من الكلمة بحسب موضعها الملائم لموضوع النصّ .



إنّ فهم معنى الكلمة القرآنية من أهمّ العناصر الأساسية لتدبر كتاب الله عزّ وجلّ ، فمن دون فهم معنى الكلمات القرآنية الواردة في النصّ الذي يراد تدبّره وفهم دلالاته ، يتعذّر الوصول إلى فهم صحيح متعمّق لكامل النصّ .

ويبدو واضحاً أنّ فهم المراد من أيّ نصّ كلامي يتوقف على معرفة دلالات المفردات اللغوية الواردة فيه .

ومن الأمور المهمّة التي على المتدبّر لكتاب الله مراعاتها ، اعتماد دلالات الكلمات القرآنية في عصر نزول القرآن ، لا وفق ما تطوّرت إليه الكلمة بعد ذلك في العصور الاسلامية ، ولا وفق المصطلحات التي تمّت بعد عصر التنزيل ، كمصطلحات الفقهاء ، وكم يقع بعض المتدبّرين في الخطأ لأنه يغفل عن هذا الأمر الأساسي المهمّ .

ومن الأمور المهمّة أيضاً تتبّع المعاني اللغوية للكلمة القرآنية أو المادّة اللغوية لها . إنّ هذا التتبّع يهدي سبيل المتدبر إلى الفهم الصحيح إنّ شاء الله . فقد تستعمل المادّة في نصّ بمعنى ، وتستعمل في نصّ آخر بمعنى آخر . مثل : (بَكَى ، يَبْكُو ، نَبَلُوا) .

ذكر الإمام الرازي عند قول الله تعالى: «يوم تبلى السرائر»^(١)
 ما يلي: (قال أبو مسلم: «بَلَوْتُ» يقع على إظهار الشيء،
 ويقع على امتحانه، كقوله تعالى: «ونبلوا أخباركم»^(٢)) وقوله:
 «ولنبلوكم»^(٣)) قال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل
 سرٍّ منها، فيكون زَيْنًا في الوجوه، وشينًا في الوجوه) •

أقول: وعلى هذا فقد يكون أحد المعاني هو الشائع فيسبق
 إلى الذهن لدى فهم بعض النصوص، وقد يقع المتدبر بسبب
 ذلك في الخطأ •

إنَّ كثيراً من المفردات اللغوية في اللغة العربية يحمل عدّة
 دلالات حقيقية ومجازية، لذلك كان على المتدبر لأي نصٍّ قرآني
 أن يبحث في معاني المفردات الواردة فيه بحثاً علمياً لغوياً،
 ويتحقق ذلك بالرجوع إلى جملة من أمّهات المعاجم اللغوية،
 ككتاب «لسان العرب» لابن منظور، وكتاب «القاموس
 المحيط» مع شروحه، وكتاب «الصحاح» وكتاب «أساس
 البلاغة» للزمخشري و «المصباح المنير» وغيرها • مع التمرس
 بتذوق استعمالات العرب الذين يستشهد بأقوالهم للكلمة في
 شعرهم ونثرهم، ما تيسر ذلك للباحث المتدبر •

(١) الطارق آية ٩ •

(٢) محمد آية ٣١ •

(٣) محمد آية ٣١ • والبقرة آية ١٥٥ •

ومن المهم النظر في مختلف دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب الذين يستشهد بأقوالهم في اللغة .

وعلى المتدبر أن ينظر في التفسير المأثور عامة ، ويتقيد بما صحّ عن النبي ﷺ منه .

وعلى المتدبر أن ينظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة ، وفي تفسير المراد منها في النص .

وقد يقتضي البحث العلمي السديد النظر في مختلف المواطن التي استعملت فيها الكلمة في القرآن ، فمن شأن تتبع استعمالات الكلمة في القرآن أن يكشف للمتدبر الحضيف الدلالات الأساسية للكلمة في الاستعمال القرآني ، فقد يتوصل الباحث إلى أنّ المعنى الاصطلاحي في الشرع هو المعنى الأساسي الذي تدور حوله الاستعمالات القرآنية كلّها أو معظمها ، أو يتوصل إلى أنّ المعنى اللغوي هو الأساس ، أو أنّ بعض المعاني اللغوية للكلمة هو الأساس ، وكلّ ذلك يقدّم نفعاً للمتدبر قد يهديه إلى فهم المعنى المراد بتوفيق الله .

ولا يكفي النظر الجزئي لمعنى الكلمة عند تدبر آية من الآيات ، فكم من خطأ في الفهم يقع فيه المتدبر بسبب النظر الجزئي الموضوعي .

إنّ معرفة وجوه دلالات الكلمة في الاستعمال القرآني ذو نفع عظيم للمتدبر الحضيف .

ثم يأتي بعد ذلك التبصّر الدقيق بمعنى النصّ القرآني الموضوع للبحث بوجه عام ، ملاحظ فيه السياق العامّ للسورة .
 بعد كلّ ذلك يستقيم للمتدبّر الكفاء أن يقرّر أو يرجّح اختياره للمعنى الحقيقي أو المجازي للكلمة في النصّ الذي يتدبره .

* * *

وتبدو أهميّة الرجوع إلى مختلف دلالات الكلمة في لغة العرب ، بحثاً في أمّهات المصادر العربية ، واستعمالات بلغاء العرب ، حينما نصطدم بحقيقة علميّة تخالف فهماً لنصّ قرآني ذهب إليه بعض أهل التفسير ، مع أنّ النصّ القرآنيّ يحتمل فهماً آخر لو تحرّينا مختلف دلالات الكلمة في لغة العرب .
 ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة (النازعات) :

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٠﴾

قال أهل التفسير : دحا الأرض بمعنى بسطها وأوسعها .
 وقد بحثت في معاني هذه المادّة في لغة العرب ، فوجدت أنّ البسط والتوسيع من معاني الدحو ، وهو الذي أخذ به أهل التفسير ، ويمكن حمله على ما يظهر من الأرض لأعين الرائيين من الناس ، إلاّ أنني وجدت أيضاً من معاني الدحو ما هو أقرب إلى واقع حال الأرض الذي يقرّره علماء الهيئة ، وبهذا المعنى تظهر إحدى الروائع القرآنية .

جاء في « لسان العرب » لابن منظور ما يلي :

« قال ابن الأعرابي : يقال : هو يدحو بالحجر بيده أي يرمي به ويدفعه • قال : والداحي الذي يدحو الحجر بيده ، وقد دحا به يدحُو دَحْوَاً ، ودَحَى يدحَى دَحْياً ، ودحاً المطرُ الحصى عن وجه الأرض دَحْوَاً نزعه ، والمطر الداحي يدحي الحصى عن وجه الأرض ينزعه » •

وجاء فيه أيضاً : « وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي ، وهي أحجارٌ أمثالُ القِرْصَةِ ، كانوا يخفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار ، فإن وقع الحجر فيها غَلَبَ صاحبها، وإن لم يقع غَلِبَ، والدحُو هو رميُّ اللاعب بالحجر أو الجوز وغيره » •

فالدحو وفق هذا الاستعمال العربي يتضمن دفعا من الداحي، وحركتين للمدحُو :

احدهما : على خط مسارٍ ما •

والأخرى : حركة دورانية حول نفسه •

ثمَّ إذا نظرنا في واقع حال الأرض فوجدناها كحجر كبير مدحُو في الفضاء ذي حركتين :

حركة في مسارٍ دائري حول الشمس •

وحركة حول نفسه •

كان من حقنا أن نرجح حمل قول الله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها » على هذا المعنى الذي يدلّ على واقع حال الأرض ، وأن نعتبر معنى البسط معنىً احتمالياً مرجوحاً .

* * *

وأؤكد أنه ينبغي الحذر من أن يتأثر المتدبر لكلام الله بمعنى اصطلاحي متأخر عن عصر التنزيل ، اصطلاح عليه الفقهاء أو الأصوليون أو غيرهم من العلماء في مختلف العلوم الإسلامية ، أو أن يتأثر بمعنى شاع في العرف العام بعد عصر التنزيل ، فيفهم معنى الكلمة القرآنية على هذا الأساس .

إنّ من يتأثر بمثل هذا يخرج الكلمة القرآنية عن دلالتها الأصلية ، وعن معناها المقصود عند التنزيل .

وينجم عن ذلك الانحراف في الفهم عن المعنى المراد .

* * *

وعلى الباحث المتدبر في المعنى المراد من الكلمة في النصّ القرآني ، أن يكون ملماً بالمفاهيم الإسلامية المتعلقة بالموضوع الذي يشتمل عليه النصّ ، وأن يكون ملماً بمفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عام ، حتى لا يذهب إلى مفهوم خاطئ وهو يحسب أنه يحسن فهماً واستنباطاً ، فلربما التزم دارس النصّ القرآني ومتدبره مفهوماً خاطئاً أخذه من دلالاته الظاهرة ، أو من

بعض معاني كلماته ، ولو أنه رجع إلى مفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عام ، لتبين له فساد ما ذهب إليه في تفسير المعنى المراد من كلمات النص الذي يتدبره ، ولكان له رأي آخر ربما يكون مخالفاً أو مناقضاً لرأيه الأول .

وعلى الباحث أيضاً أن يرجع في موضوع النص الذي يدرسه ويتدبره إلى جميع ما جاء في القرآن حوله من آيات أخرى ، وما جاء في أقوال الرسول الثابتة عنه . فمن شأن هذا الرجوع أن يهدي الباحث المتدبر إلى الفهم الذي هو أدنى إلى الصواب إن شاء الله ، وعليه أن يختار المعنى الملائم من معاني الكلمة القرآنية للنص الذي يتدبره .

* * *

القاعدة السابعة

« حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي

اشتمل عليها القرآن »

النصوص القرآنية متكاملة في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن ، وليس في أي موضوع قرآني فجوات مهمة ، ومن شأن البحث والتدبر المتعمق أن يملأ كل فجوة من صريح نص ، أو من فحواه أو إشارات ، أو من محذوف مقدر توجد دلالة عليه .

فعلى متدبر كتاب الله أن يتتبع في الموضوع الواحد كل النصوص القرآنية المتعلقة به ، ويتدبرها ملاحظاً تكامل دلالاتها ، ومستبعداً ما أمكن تصورات التكرار ، فالأصل التأسيس لا التأكيد .

* * *

قد يسهل على الناظر في كتاب الله دون تدبر عميق إذا رأى آيات متفرقات تتحدث حول موضوع واحد ، أن يتصور ببساطة أنها قد جاءت مكررة لغرض التأكيد ، وأنه لا توجد فروق بينها تجعلها متكاملة في دلالاتها لا مكررة .

وبادي الرأي هذا سطحية لا تليق بمتدبرٍ حصيف يتدبر
كتاب الله بعمقٍ ورويةٍ وبحثٍ مستقصٍ لأطراف الموضوع •
كثيرٌ من النصوص كنّا نظنّها مكرّرة ، وكنا نفهم أنّ
الغرض من تكريرها التأكيد ، وتحقيق أهداف تربوية • لكنّ
البحث العميق أثبت أنّها متكاملة مع تحقيق غرض التأكيد
والأهداف التربوية •

ومن التبع لكثير من الموضوعات في استقراءٍ ناقصٍ بالنسبة
إليّ ، تأكد عندي أنّ النصوص القرآنية متكاملة في الموضوعات
التي اشتمل عليها القرآن ، وأنّ كلّ نصٍّ من النصوص الواردة
حول موضوع واحد ، يشتمل على ما يملأ فراغ حبةٍ في عقد
الموضوع ، ويمتاز ببيان فكرةٍ إذا انضمت مع سائر الأفكار التي
أبانتها سائر النصوص ، تكاملَ بيانُ الموضوع بكلّ عناصره ،
ومن كلّ جوانبه •

وتأكد عندي أنّه ليس في أيّ موضوع قرآني فجوات
مهملة ، ولكن قد لا يهتدي المتدبر إلى ملء الفجوة التي يلاحظها
بدلالة نصٍّ من النصوص القرآنية الموزعة في السور ، إمّا لأنّه
لم يتنبّه إلى النصّ ، وإمّا لأنّه لم يتنبّه إلى دلالاته الظاهرة
أو الخفية •

فالعيب من نقص التدبر أو من قصوره ، أمّا كتاب الله

فلا نقص فيه ، ولا تفريط فيه بشيء مما هو مقصود الرسالة
الربانية للناس ، كما قال الله تعالى في سورة (الأنعام) :

مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۖ

إذا حملنا لفظ الكتاب في الآية على القرآن وهو الأظهر •
وكما قال الله تعالى في سورة (الروم) :

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۖ

والمثل في موضوع ما أو جزئية من الجزئيات قد يغني عن
ذكر سائر الأشباه والنظائر •

وليس معنى هذا أن كل التفصيلات الجزئية التي جاءت
في البيان النبوي قد جاءت بوجه أو بآخر في القرآن ، بل المراد
أن أصول المعاني للموضوعات الدينية قد جاءت في القرآن بوجه
أو بآخر ، فالقرآن فيه استيعاب لأفكار كل موضوع من
الموضوعات التي اهتم ببيانها من الكليات الدينية ، أمّا التكاليف
العملية والتطبيقات فقد أحال القرآن تفصيلاتها على البيان النبوي
القولی والعملی • والاستيعاب لأفكار كل موضوع من
الموضوعات التي استوفت مقصود الرسالة الربانية للناس قد
يكون عن طريق ضرب المثل ، وقياس سائر الأشباه والنظائر عليه •

وبناء على ما سبق فالأصل تكامل النصوص القرآنية الواردة
حول موضوع واحد • والتأسيس في كل نص منها مقدّم على

التأكيد ، أي فهم النصّ على أنه يحمل فكرة جديدة أولى من فهمه على أنه يؤكّد فكرة سابقة ، ولا يُصار إلى حمله على أنه من قبيل التأكيد المحض إلاّ عند تعذّر حمله على أنه يشتمل على فكرة جديدة مقبولة لا اعتراض عليها في مفاهيم القرآن ، مع مافيه من تأكيد لأصل الموضوع مقترن بزيادة الفكرة الجديدة .

والذين لا يفهمون مبدأ تكامل النصوص القرآنية ، ولا يجعلونه من القواعد الأساسية لما يتدبّرون من كتاب الله ، يقعون في عدة أخطاء : منها أنهم لا يتنبهون إلى المعنى المضاف الذي اشتمل عليه النصّ الثاني • ومنها أنهم يفرقون بين آيات الله في كتابه فيفهمونها اشتاتاً ، ولا يتدبّرونها على أساس أنّها وحدة مجتمعة ، وأنّ كلاًّ منها يملأ فراغاً من الموضوع العام لا يزاحم فيه غيره • ومنها أنهم قد يطبّقون بعضها على بعض فيجعلونها مكرّرات ، ويلغون بذلك الدلالات الخاصة التي انفرد بها كلّ نصّ ، والذي يوقعهم في هذا الوهم أنّ إضافة الفكرة الجديدة في النصّ الثاني أو الثالث قد استدعت إعادة أصل الموضوع ، فهم يغفلون عن الفكرة المضافة فيتصوّرون أنّ النصّ كلّّه تكرير لما سبقه لغرض التأكيد ، وقد يعملّون ذلك بأغراض تربوية ، على أنّ التأكيد والأهداف التربوية أمور باقية لا تلغى مع فهم الفكرة المضافة في النصّ الجديد • وهكذا يفعل المعلّم البارِع كلما أراد أن يضيف فكرة لدرس سابق •

فالفهم السديد والتدبّر الصحيح للنصوص القرآنية ،
يوجبان على المتدبّر لكلام الله أن يجمع كلّ النصوص المتعلقة
بموضوع واحد، ويتدبّرها مجتمعة ، مألّة أمكنتها من الموضوع،
حتى لا يطفئ بعضها على بعض ، ولا يتجاوز حدود مكانه الخاص
به فيأخذ مكان غيره •

لنأخذ مثلاً قول الله تعالى في سورة (المائدة) :

عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَمَرْتُمْ ۖ ﴿١٥﴾

إنّ هذا النصّ لا بدّ أن يفهم مجتمعاً مع غيره من النصوص
الآمرة بالجهاد ، والتي تحمّل المؤمنين مسؤولية الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، والأخذ على أيدي الظالمين ، ووقاية الأهل
من النار ، والحكم بما أنزل الله ، وإقامة حكم الله في الأرض عند
الاستطاعة ولو باستخدام وسائل القوة العسكرية المسلّحة •

وطريقة تفسير القرآن بالقرآن لا تعني تطبيق الآيات القرآنية
الواردة حول موضوع واحد أو متقارب بعضها على بعض ،
واعتبارها دالّة على معنى واحد ، بل من أهمّ ما تجب ملاحظته
لدى تفسير القرآن بالقرآن توزيع دلالات الآيات على المعاني
التي تملأ فراغات في ساحة الموضوع ، أو في خريطة الموضوع ،
فهذا أولى من تجميعها وتطبيقها جميعاً على فكرة واحدة ، بل
هو الذي يوجه التدبّر الصحيح لكتاب الله المجيد •

امثلة :

المثال الاول :

في موضوع من موضوعات التقوى لدينا ثلاثة نصوص :

الاول : ما جاء آخر آية المداينة في اواخر سورة (البقرة) :

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾

والثاني : قول الله تعالى في سورة (الأنفال) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

والثالث : قول الله تعالى في سورة (الحديد) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾

هذه النصوص الثلاثة يرى بعض المفسرين أخذاً بطريقة تفسير القرآن بالقرآن تطبيق المراد منها على معنى واحد ، وهو أن من اتقى الله فتح الله له أبواب المعرفة ، ونور بصيرته للجولان في آفاق العلم ، ويزيد الصوفيون في هذا فيجعلون المراد منها الوصول إلى العلم اللدني الذي لا يأتي عن طريق الاكتساب العلمي وإنما يأتي عن طريق الإلهام أو ما يسمونه بالكشف ،

وسببه التقوى فقط • وتتساءل هنا : كيف يستطيع أن يتقي الله حق تقاته من لم يسبق له معرفة طريق التقوى ، فقد يعصي الله وهو يحسب أنه يتقيه •

إذا تركنا في هذه النصوص الثلاثة طريقة التطبيق ، واستهدينا بقاعدة تكامل النصوص ، ورجعنا إلى سياق كل نص منها ، ظهر لنا ما يلي :

١ - ما جاء في آخر آية المداينة التي اشتملت على أحكام رائعة ، وإرشادات عظيمة ، وتعليم من الله تعالى للذين آمنوا ، قد جاء مناسباً تماماً لهذه الأحكام والإرشادات ، ومناسباً لهذا التعليم الرباني المنزل في الكتاب •

إنّ الأحكام التكليفية يناسبها الأمر بالتقوى ، فجاء في آخر الآية : « واتقوا الله » •

والأحكام والإرشادات العظيمة تعليم ربانيّ منزل يناسبه الامتنان بالتعليم ، فجاء عقب الأمر بالتقوى : « ويعلمكم الله » • ثم ختم ذلك بتمجيد الله بأنه بكلّ شيء عليم ، أي فما يعلمه عباده هو الحق وهو الخير لهم ، فقال تعالى : « والله بكلّ شيء عليم » •

٢ - وما جاء في سورة (الأتفال) : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » ؛ قد جاء بياناً لبعض ثواب المتقين

في الدُّنيا ، وهو الفرقان ، أي البصيرة التي تجعل المتقي يفرّق بين الحق والباطل ، وهذا نوع من التوفيق العلمي الذي يمنح الله فيه المتقين نوراً خاصاً لبصائرهم وقلوبهم وأذهانهم •

٣ — وما جاء في سورة (الحديد) : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » قد دلّ السياق على أنّه ثواب أخروي يكون لهم يوم القيامة •

فالخطاب للذين آمنوا من أهل الكتاب ، فالله يقول لهم : « يؤتكم كفلين من رحمته » أي يؤتكم نصيبين ، على إيمانكم الأوّل ثمّ على إيمانكم بمحمد ﷺ وبالقرآن •

والسورة قد تحدّثت في سوابقها عن النور الذي يكون للمؤمنين يوم القيامة ، وأنّ المنافقين والمنافقات محرومون من هذا النور •

فتكاملت المعاني بهذه الطريقة المستهدية بقاعدة تكامل النصوص ، أمّا التطبيق على معنى واحد فقد ضيّع هذه الدلالات •

* * *

المثال الثاني :

في موضوع النهي عن قتل الأولاد ، لدينا نصّان :

الأول : وهو الأسبق نزولاً ، نزل في مكة ، هو قول الله تعالى في سورة (الإسراء) :

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَأْتُمْ نُحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا

كَبِيرًا ﴿٣١﴾

والثاني : وقد نزل في المدينة ، هو قول الله تعالى في سورة

(الأنعام) :

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ نُحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾

إذا تدبرنا هذين النصين وجدناهما متكاملين لا مكررين
فما جاء في سورة الإسراء أعلن الله عز وجل فيه تكفله برزق
الأولاد ، وعطف عليه تكفله برزق أوليائهم المنفقين عليهم ، وذلك
في موضوع محاولة التخلص من الأولاد بقتلهم خشية حدوث
الفقر في المستقبل بسبب الانفاق عليهم ، فالله ينهى عن قتلهم في
هذه الحالة ، ويبين للأولياء أن رزقهم قد يكون بسبب الأولاد
أو عن طريقهم إذا كبروا ، وقد دل على هذا تقديم التكفل
برزق الأولاد « نحن نرزقهم وإياكم » • ودل على أن الفقر أمر
محذور وقوعه في المستقبل المجهول وليس واقعاً في الحال قوله
تعالى في الآية: « خشية إِمْلَاق » أي خشية حدوث فقر في المستقبل •

وما جاء في سورة الأنعام قد أعلن الله فيه تكفله برزق
الأولياء ، وعطف عليه تكفله برزق أولادهم ، على عكس ما جاء
في النص الأول ، لأن الموضوع هنا هو محاولة التخلص من

الأولاد بقتلهم ، تخلصاً من أزمة الفقر الواقع الجائم ، دلّ على هذا قول الله في الآية : « ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق » أي من فقر واقع فعلاً ، فكان المناسب هنا تقديم التعهد برزق الأولياء على التعهد برزق أولادهم .

فتكامل النصّان ، وتمّ الموضوع من مختلف جوانبه ، وحصل مع ذلك تأكيد النهي عن قتل الأولاد الذي هو أساس الموضوع بما جاء في النصّ المتأخر .

وجاء ترتيب النزول منسجماً مع الترتيب المنطقي ، فالنهي الأول تضمن النهي عن قتل الأولاد خشية حدوث الفقر في المستقبل . ولكن بقي بعده سؤال ، وهو : فما هو حال من يعاني من أزمة فقر واقع جائم ، أليس له أن يتخلص من أولاده الذين لا يجد ما ينفقه عليهم ؟ . فكان جواب هذا السؤال الذي قد يدور في الصدور : « ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق نحن نرزقكم وإيّاهم » .



المثال الثالث :

في موضوع التقليد لما كان عليه الآباء بتعصبٍ أعمى ، وذمّ ذلك ، والاقناع بأنه ليس طريقة أهل الرأي والعقل ، جاء نصان في القرآن الكريم :

الأول : مكيّ ، وهو قول الله تعالى في سورة (لقمان) :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ
الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

الثاني : مدني ، وهو قول الله تعالى في سورة (البقرة) :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾

ونحن إذا تدبرنا هذين النصين أيضاً وجدناهما متكاملين
لامكررين ، وبرهان ذلك :

أنّ ما جاء في (لقمان) وكان الأسبق نزولاً ، قد تضمن
إقناع المقلّدين المتعصّين لآبائهم باحتمال أن يكون آبائهم قد
كانوا متبعين لخطوات الشيطان ، الذي يدعوهم عن طريق
أهوائهم وشهواتهم إلى عذاب السعير .

وإذا كان أمرهم كذلك فليس من شأن ذوي الرأي والعقل
من ذريّاتهم أن يتبعوهم اتباعاً أعمى ، لأنهم سيكونون معهم في
عذاب السعير .

وأن ما جاء في سورة (البقرة) قد تضمّن إقناع المقلّدين

المتعصبين لآبائهم باحتمال أن يكون آباؤهم قد كانوا لا يعقلون شيئاً من المعرفة ، ولا يهتدون إلى سبيل نجاتهم وسعادتهم .

وإذا كان أمرهم كذلك فليس من شأن ذوي الرأي والعقل من ذريّاتهم أن يتبعوهم اتباعاً أعمى ، لأنهم إذا اتبعوهم فقد اتبعوا جاهلين ضالّين .

ولما كان التقليد الأعمى للآباء بدافع التعصب عرضة لأمرين فاسدين :

الأول : كون المتبوع تابعاً لأهوائه وشهواته ومتأثراً بوساوس الشيطان .

الثاني : كون المتبوع جاهلاً لا بصيرة له ، ومعانداً لا يتقبل هداية .

لما كان التقليد الأعمى للآباء كذلك كان منهجاً باطلاً وعملاً مذموماً لا يليق بأهل الرأي والعقل أن يفعلوه ، وبهذا يتمّ الاقناع لمن أراد الحق .

فتكامل النصّان ، وتمّ الموضوع من مختلف جوانبه ، وحصل مع ذلك تأكيد ذمّ التقليد الأعمى الذي هو أساس الموضوع بما جاء في النص المتأخر .

* * *

القاعدة الثامنة

« حول تكافؤ النصوص القرآنية إلا ما ثبت نسخه بقاطع
ولزوم الجمع بينها »

ليس بعض النصوص القرآنية أولى بالاعتبار من بعض ،
ما لم يثبت قطعاً نسخ السابق منها في النزول باللاحق •

فعلى المتدبرّ لكتاب الله أن يجمع بين النصوص القرآنية التي
قد يبدو فيها التعارض ، كالنصوص المشتتة على عمومات مع
نصوص أخرى تعارضها في عمومها •

ومن الجمع بين النصوص لحلّ التعارض تخصيص العموم
تخصيصاً يتفق مع المفاهيم الإسلامية بوجه عامّ ، ولا يلغي أصل
دلالة العموم على الكثرة •

وإذا ورد نصّان أحدهما خاصّ والآخر عامّ حول موضوع
واحد ، فإن اتفقا في الحكم فلا إشكال ، وإن اختلفا فالخاص في
مورده أقوى دلالة من دلالة العام • وعليه فالنصّ إذا كان واضح
الدلالة محدّد الدائرة التي يتحدّث عنها وتعارض مع دلالة النصّ
العام كان النصّ العامّ مخصّصاً وغير متناول للدائرة التي تحدّث
عنها النصّ الخاصّ •

ثم ينظر بعد ذلك : هل الباقي من العامّ مراد كله أو له أيضاً

ما يخصه ، وفي كل الأحوال لابد أن يبقى من العام ما يصح معه
إسناد الحكم الذي اشتمل عليه •
وعلى المتدبر لكلام الله أن يبحث ويتبع النصوص ويستقرئها
على مقدار استطاعته •

* * *

الأمثلة :

من الأمثلة عموم قول الله تعالى في سورة (الزمر) :

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ^ط وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢٢﴾

وقول الله تعالى في سورة (غافر) :

ذَلِكُرَّ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ^ط وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٢٣﴾

وقول الله تعالى في سورة (الرعد) :

قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ^ط وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٢٤﴾

لا يصح أن يطفى على عموم قول الله تعالى في سورة
(البقرة) :

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا ^ع إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٢٥﴾

وعوم قول الله تعالى في سورة (الأنعام) :

لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا ^ط إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٢٦﴾

ونحو هذه النصوص •

إنَّ عموم القسم الثاني من هذه النصوص يثبت أنَّ ما يكلف الله به عباده هو من وسعهم ، وإذا كان من وسعهم فاذا فعلوه فهو من كسبهم ، فالعموم في القسم الأول (الله خالق كل شيء) لا بدَّ أن يكون مخصَّصاً فيما لا يعارض كون النفوس المكلفة من الله ذات وسع لعمل واختيار ما كلفها الله به .

على أننا نقول : إنَّ هذا الوسع والقدرة على الاختيار من خلق الله تعالى .

فما جعله الله منوطاً بكسب المكلفين قد خلق فيهم الاستعداد لفعله أو تركه ، وأمدَّهم بالطاقة التي يستطيعون بإرادتهم توجيهها دون أن يجبرهم على التوجيه . لكنَّهم إذا أرادوا خيراً أو شراً ظلَّ إمداده بالطاقة لهم مستمراً ، لينفذوا ما أرادوا ، مع أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأمسك عن إمداده لهم ، أو لقطع عنهم الامداد بالطاقة فلم يستطيعوا أن ينفذوا ما أرادوا .

وهذا تمكين قدري خلقي ، وليس إذناً تكليفاً ، فالتمكن القدري الخلقي قد يصاحبه نهيٌ تكليفي ، أو أمر تكليفي أو إباحة .

* * *

وعوم صفات الله كذلك ، فلا يصح من أجل صفةٍ ما إهمال صفة أخرى .

إِنَّ الحكمة والعدل لا يهملان من أجل صفتي الخلق والتقدير،
والحكمة لا تهمل من أجل إطلاق صفة المشيئة .

إِنَّ صفات الله مجتمعة بتناسق تامّ ، فلا ينقص بعضها بعضاً ،
ولا يعارض بعضها بعضاً ، فكون الله يفعل ما يشاء لا يلزم منه أنه
يفعل شيئاً على خلاف حكمته جل وعلا ، أو على خلاف عدله
وفضله ، بل هو يشاء دون إجبار ما هو حكيم ، ويفعل دون إجبار
ما يشاء ، وعلى متدبّر كلام الله أن يلاحظ باستمرار هذه القاعدة،
 ويفهم كتاب الله في ضوء هذه الحقيقة .



ومن ذلك عموم قول الله تعالى في سورة (المائدة) :

عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴿٥٥﴾

إذا فهم هذا النصّ على إطلاقه الظاهر ألغى دلالات نصوص
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، والأمر
بوقاية الأهل من النار .

وفهم النصوص بعد اجتماعها كلّها يوضّح أنّ هذا النصّ
له موضع لا يتعدّاه ، ضمن الموضوع العامّ الذي تناولته جملة
النصوص .

فقول الله تعالى : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا
اهتديتم » يراد منه بيان أن مسؤولية المؤمن لا تتجاوز حدود ما أمره

الله به من إيمان وعمل ، ويدخل في العمل الجهاد في سبيل الله ،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم ،
والعمل لإقامة شريعة الله وحدوده • فمسؤوليته لا تتجاوز هذه
الحدود حتى تدخل في حدود أنه مسؤول عن ضلال من ضلّ بعد
ذلك ، بل ضلال مَنْ ضل بعد ذلك تقع مسؤوليته على نفسه ،
لا يضر بضلاله عند الله أحداً من المؤمنين القائمين بما أمرهم
الله به •

ويأتي الغلط في فهم هذا النص من تعميمه ، وجعله شاملاً
إسقاط واجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على
يد الظالم ، والجهاد في سبيل الله ، كما شمل إسقاط مسؤولية
التحويل من الضلال إلى الهدى • بينما المراد منه منحصر في أن
المؤمنين غير مسؤولين عن تحويل الكافرين الضالين إلى الهداية ،
بعد قيامهم بواجبات الدعوة والجهاد وإقامة الحكم الاسلامي
ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً •



القاعدة التاسعة

« حول تتبع مراحل التنزيل »

على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن ، ويبنى فهمه على أساس تدرّج التشريع ، حتى لا يقع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرّج التشريع مع أنه قد نزل بعدها تكميل أو بيان كاشف لأحكام المرحلة اللاحقة ، وحتى لا يقع في خطأ تصوّر معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها الذي تعالجه من موضوعات التكاليف والأحكام ، ووسائل التربية ، وطرائق الإصلاح ، وأساليب الدعوة ، وألوان الجهاد .

أمّا النصوص الخبرية والمبينة للعقائد وأصول الدين الكبرى فيضمّ اللاحق منها للسابق وتفهم متكاملة الدلالة كأنها أنزلت في وقت واحد ، لأن مضامينها حقائق لا تكاليف ولا مراحل تربوية ، ومرآتها مراحل بيان تعليمي فقط .



إنّ النصوص المتأخرة نزولاً في الأحكام والتشريعات هي الأحق بأن تكون عمدة الأحكام والتشريعات النهائية ، إن كانت

معارضة تماماً لما نزل قبلها ، ومكملة ومبينة إذا لم تكن معارضة تماماً لما نزل قبلها •

إنّ النصوص المتأخرة قد تكون مبينة للمراد ، وقد تكون مقيّدة مطلقاً ، أو مخصصة عموماً ، أو مثبتة حكم لم تثبتة السابقة ، أو مبينة انتهاء العمل بحكم السابقة ، أو مكملة لأحكام أو دلالات لم تستوفها السابقة عن قصدٍ ، التزاماً بحكمة التدرج في التشريع ، وفي التربية ، وفي التعليم •

وتتبع مراحل النزول للنصوص التربوية يكشف للباحث عن التدرج في الخطوات التربوية ، والتكرير في استعمال العلاج التربوي ، بغية تأثيره والحصول على الفائدة منه ، كالعلاج الدوائي في مجال الصحة الجسدية •

فالنصوص التربوية ذوات مراحل تدرجية توائم الحالة النفسية للفرد الذي توجه له بها أساليب التربية القرآنية ، وتوائم الحالة النفسية والاجتماعية للمجموعة من الناس الذين تتوجه لهم بها أساليب التربية القرآنية •

وكذلك النصوص الحركية في طرائق الاصلاح ، وأساليب الدعوة ، وألوان الجهاد •

بخلاف النصوص الخبرية ، والنصوص التي تبين مسائل العقائد وأصول الدين الكلية العامة ، فالمرحلة فيها مرحلية بيان تعليمي ، وليست مرحلية تدرج تربوي ، حتى يعتبر العمل باللاحق

هو الأمر المستقر ، بل كلّها ذوات دلالات مقصودة على الدوام ،
واللاحق منها يضم إلى السابق وتفهم معاً كأنها أنزلت دفعة واحدة ،
فهي متكاملة في دلالاتها يكمل بعضها بعضاً •



والمرحوم الشهيد « سيد قطب » قد وضحت له الرؤية تماماً
لطبيعة المنهج الحركي ، ومراحله ، وخطواته ، فأبان ذلك في صدر
تفسيره لسورة (التوبة) بعد أن أبان أن هذه السورة من أواخر
ما نزل من القرآن ، فقال :

« والسورة — بهذا الاعتبار — ذات أهمية في بيان طبيعة
المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته ، حين تراجع الأحكام
النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور
قبلها • وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج ، وعن
مدى حسمه كذلك •

وبدون هذه المراجعة تختلط الصوَر والأحكام والقواعد ،
كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاماً مرحلية فجعلت
نهائية ، ثمّ أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسّر
وتؤوّل لتطابق تلك الأحكام المرحلية ، وبخاصة في موضوع الجهاد
الإسلامي ، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى » •

وأقول : إنّ الخطوات المرحلية لا تعني دائماً نسخ المتأخر
منها للمتقدّم ، بل تفيد أن الإسلام ذو منهج حركي في قيادة الخلق

إلى الحق ، وفي إبلاغهم إلى التحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى وحده لاشريك له ، وفي إقامة شرائعه وأحكامه النهائية •

والمنهج الحركي لدى التطبيق يراعى فيه تطبيق المرحلة التي تناسب الظرف النفسي والاجتماعي للأمة التي تدعى إلى تطبيق الاسلام •

وعلى الداعي أو الدعاة أن يستفيدوا في دعوتهم — لاسيما في موضوع الجهاد في سبيل الله — من الخطوات المرحلية التي سارت على وفقها الدعوة الاسلامية في عصر التنزيل •

* * *

الأمثلة :

المثال الأول : التدرج في تحريم الخمر •

أولاً : في العهد المكي جاء التلويح بأنّ صفات الرسول محمد ﷺ أنه يحلّ لأئمة الطيّبات ويحرم عليهم الخبائث ، وقد جاء ذلك في أواسط السور التي نزلت في العهد المكي •

ففي سورة (الأعراف) نزل قول الله تعالى :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْخَبَائِثَ ﴿١٥٧﴾

* * *

ثم نزل بعد ذلك تلويح أقوى في العهد المكي أيضاً ، فقال تعالى في سورة (النحل) :

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾

ففي وصف الرزق بأنه حسن ، في مقابل السَّكْر تلويح ضمني إلى أن السَّكْر ليس رزقاً وليس حسناً ، فكونه ليس رزقاً يتضمن بيان أنه لا تنفع فيه للشاربين ، إذ لو كان فيه نفع لكان رزقاً ، ولدخل في عموم الرزق ، وإذا ترك السَّكْر في الآية من دون وصف ، مع وصف الرزق بأنه حسن ، فقد دل ذلك على أن السَّكْر لا يستحق أن يوصف بأنه حسن ، وفي هذا تلويح بأنه على قائمة الخبائث .

ولكن في تحوّل هذه الثمرات إلى مواد مسكرة دليل على إحكام القوانين المنظمة للكون بتدبير الخالق ، ومن أجل ذلك ختمت الآية بقول الله تعالى : « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » . والنص كله ورد في معرض لفت النظر إلى ظواهر صناعة الخالق في كونه ، للاستدلال منها على حكمته وقدرته وعنايته ووجوده المهيمن على كل شيء .

* * *

ثانياً : وفي العهد المدني نزل في أوائله التمهيد الصريح للتحريم ، ثم نزل بعد ذلك التحريم في أوقات الصلاة ، ثم نزل التحريم النهائي في كل الاوقات .

ففي سورة (البقرة) - أول سورة مدنية - نزل قول
الله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ
وَأُكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴿١٦٩﴾

وبقليل من التأمل يتضح لنا أنَّ الباحث المتفكّر لابدَّ أن
يصل بنفسه إلى تحريم الخمر ، متى عرف أنَّ إثمهُ أكبر من نفعه ،
فما زاد ضرره على نفعه ابتعد عنه أهل الفكر الثاقب ، والرأي
الحصيف . لأنهم يعلمون من حساب الربح والخسارة أنهم في
العملية خاسرون ، فهم لا يمارسون عملاً هم فيه خاسرون . ولذلك
ختم الله الآية بقوله : « كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم
تتفكرون » .



ثم نزل بعد ذلك في سورة (النساء) قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿٤٣﴾

وكان هذا النص صريحاً في تحريم شرب الخمر في أوقات
الصلاة ، أو في تحريم الشرب المسكر في هذه الاوقات ، مع بقاء
التلويح بالابتعاد عنه ابتعاداً كلياً .

ولمّا كان من شأن النص السابق أن يكون داعياً إلى الامتناع
عن شرب الخمر ولو لم يكن صريحاً في التحريم ، جاء في هذا النص

تعريض بالعمو والغفران ، كأنّ الذنب قد حصل ، وإن لم يكن في مخالفة حكم صريح ، فمثل كبار الصحابة كان يكفيهم تقديم الدليل الاستنباطي لهم ، حتى يمتنعوا ، لا أن يكونوا كأحاديث المسلمين في الحاجة إلى النصوص الصريحة الواضحة ، ولذلك ختم الله آية النساء بقوله : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً غَفُوراً » .



ثم نزل بعد ذلك النصّ الختامي النهائي المتضمن للتحريم الصريح ، وهو قول الله تعالى في سورة (المائدة) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَوُا ۖ إِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

فكان هذا نصّاً قاطعاً صريحاً في التحريم ، وقال عمر : اتھينا يا ربّ اتھينا .



المثال الثاني : التدرج في تحريم الربا .

لم ينزل تحريم الربا من أوّل الأمر دفعة واحدة ، وإنّما

اتَّبَعَ فِي تَحْرِيمِهِ أُسْلُوبَ التَّدْرِجِ ، وَمِنْ تَتَبُعِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ
بِحَسَبِ مَرَاهِلِ التَّنْزِيلِ ظَهَرَ لَنَا مَا يَلِي :

أولاً : في أواخر دور الدعوة المكيَّة ألح الله إلى أن الربا
تعامل لا يبارك فيه ، ولا يحمد فاعليه ، فقال عز وجل في سورة
(الروم) :

وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيِّبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا أَتَيْتُم مِّن
زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٦﴾

فكان هذا تمهيداً لما جاء بعده من بيان أكثر وضوحاً ،
وإنذاراً بأنَّ الخطَّة سائرة إلى اعلان تحريم الربا تحريماً قاطعاً •
ثانياً : وفي أوائل العهد المدني أنزل الله تعالى قوله في سورة
(آل عمران) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مِزَاجًا ضَعُفًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾

وكان هذا نهياً صريحاً عن التعامل بالربا الذي كان معروفاً
عند أهل الجاهلية •

ولكن لم يكن هذا النص صريحاً في تحريم كل الربا وإن
قل •

ثالثاً : ثم أنزل الله ذم اليهود بأكلهم الربا وقد نهوا عنه ،

وعسم الربا في هذا الذم ، وهنا يتردد الفكر ، هل هو كل الربا وهو الأرجح ؟ أو ما كان منه أضعافاً مضاعفة ، فقال الله عز وجل " في سورة (النساء) :

فِظْلِهِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾

وكان هذا النص تمهيداً مشعراً بتحريم كل الربا ، وإنذاراً بأن المخالفين يصيبهم ما أصاب يهود من قبل من ألوان عقاب .

رابعاً : ثم أنزل الله النص الأخير القاطع بتحريم الربا كله ، قل أو كثر ، وكان هذا من أواخر ما نزل من القرآن ، فقال الله تعالى في أواخر سورة (البقرة) :

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۚ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَآنتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

الآيات حتى الآية ٢٨١ .

المثال الثالث : التدرج في وسائل التربية •

على مثل التدرج في بيان أحكام التشريع ، كان التدرج في استخدام أساليب التربية ووسائلها ، ومتتبع القرآن الكريم يجد أن هذه القاعدة مسيطرة تماماً لمراحل التنزيل •



المثال الرابع : التدرج في أحكام الجهاد في سبيل الله من جهاد الدعوة ، إلى جهاد القتال الفاتح •
لخص الامام ابن القيم هذا التدرج في كتابه « زاد المعاد » بقوله :

(أول ما أوحى إليه ربّه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربّه الذي خلق • وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ •

ثم أنزل عليه : « يا أيها المدثر قم فأندّر » •

فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ « يا أيها المدثر » •

ثم أمره أن يندّر عشيرته الأقربين • ثم أنذر قومه • ثم أنذر من حولهم من العرب • ثم أنذر العرب قاطبة • ثم أنذر العالمين •
فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته يندّر بالدعوة بغير قتال ، ولا جزية ، ويؤمر بالكف ، والصبر ، والصنف •

ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال •

ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمّن اعتزله ولم يقاتله •

ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ••

ثم كان الكفّار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام :

أ - أهل صلح وهدنة •

ب - وأهل حرب •

ج - وأهل ذمّة •

فأمر بأن يتمّ لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفّي لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد • وأمر أن يقاتل من نقض عهده ••

ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الاسلام • وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم •

فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللّسان •

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفّار ونبذ عهودهم إليهم • وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

● قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم •

● وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوا ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم •

● وقسماً لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم •••

فقتل الناقض لعده ، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر •

وأمره أن يتم للسوفي بعده عهده إلى مدته •

فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم ، وضرب على أهل الذمة الجزية •

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة •••

ثم آلت حالة العهد والصلح إلى الاسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة • والمحاربون له خائفون منه ••

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام :

● مسلم مؤمن به •

● ومسالمة له آمن •

● وخائف محارب •

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ،
 ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة • وأمر
 أن يعرض عنهم ، ويغظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى
 نفوسهم ، ونهي أن يثلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ،
 وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم ••

فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين) •

اتمى كلام ابن القيم



إنّ مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه ، وملاحظتها لدى
 التدبّر ، تحمي من أخطاءٍ تفسيرية قد يقع بها بعض المفسّرين •
 فبعضهم قد يأتي بقتصص مدنية فيضعها شرحاً أو سبباً لنصٍّ
 مكّي ، ويحمل بذلك النصّ ما لا يحمل ، وقد يقع من جراء
 ذلك في خطأ فادح •

وتدبّر القرآن مع مراعاة مراحل التنزيل ، وملاحظة ترتيب
 نزول الآيات ، يجلب نقعاً كبيراً للمتدبّر •

فهو يهديه إلى مفاهيم جليّة تتصل بحكمة التدرج ، وبمعرفة
 الغاية من التكرير إذا وجد في القرآن دون فرق بين النصوص اقتضاه
 غرض التكامل •

ويعرف ترتيب نزول القرآن بالنظر في ترتيب نزول السُّور
المبيّن عند العلماء بالتنزيل •

ويعرف في السورة الواحدة بترتيب الآيات فيها ، ما لم يرد
نصّ بخلاف ذلك • كأن يثبت تقدّم نزول الآية ، أو يثبت تأخر
نزولها ، فعندئذٍ يتّبع ما ثبت في النص المبيّن لتاريخ النزول •

وقد يعرف ترتيب النزول بالتبصر العقلي الهادي إلى قواعد
سنة الله التي جرى على وفقها إِنْزال معظم النصوص القرآنية
وأحكام التشريع •



القاعدة العاشرة

« حول البحث عن المحاذيف للإيجاز »

على متدبّر النصّ القرآني أن يبحث عن كلّ محذوف من النصّ للإيجاز ، يستدعيه المعنى ، أو توازن النصّ وتناظره ، أو يوجد في اللقطة المذكور ما يدلّ عليه .



إنّ القرآن فيه إيجاز كثير يدركه أهل التدبّر العميق ، والبصيرة النافذة الكاشفة ، على أنّ القدر الذي يفهمه منه المتدبّر السطحيّ كافٍ لهديته ، ولكنه لا يصل إلى ما يحتوي عليه من معانٍ عميقة ، ودلالات دقيقة ، وهذه المعاني والدلالات هي من المعاني الظاهرة لا الباطنة ، إلاّ أنّ رؤيتها من الظاهر تحتاج إلى بصيرة كاشفة ، ومقدار من الفهم واسع ، وتأمّل طويل^(١) .

ورؤية النصّ القرآني من متدبّر إلى متدبّر آخر أكثر منه بصيرة وإدراكاً للجزئيات ، وإدراكاً لظلال النصّ ، وإدراكاً لما

(١) من دقّة بعض الدلالات القرآنية على بعض المعاني ، يتخذ أهل الضلال الباطنيون حيلةً يزعمون فيها أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً ، ثمّ يتلاعبون بالباطن على وفق أهوائهم وما يوحى إليهم به شياطينهم !!

بين كلماته وسطوره ، وإدراكاً لمقتضياته ولوازمه ، تختلف
اختلافاً عظيماً ، ينتج عنه اختلاف كبير في مقدار الإدراك للدلالات ،
ومقدار الفهم للمعاني . كاختلاف رؤية المدينة من ارتفاع
عشرين ألف قدمٍ أو أكثر في الطائرة ، ودون ذلك حتى ارتفاع
أقدام لا تزيد على المئة ، مع بطء في سرعة السير يسمح بالتأمل في
الجزئيات ، والوقوف عند ما يريد منها لإمعان التأمل ، وإدامة
النظر بغية اكتشاف الدقائق .

فكثيراً ما يحذف من النصّ ما يقتضيه معنى النصّ ، كحذف
جواب لولا ، وحذف جواب لو ، وحذف المضاف وإقامة المضاف
إليه مقامه ، وكحذف الصفة التي يوجد في النصّ ما يقتضيها ،
إلى غير ذلك من أمور كثيرة عدّ منها العز بن عبد السلام تسعة
عشر نوعاً (١) .

وقد يحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، ويحذف من الأواخر
لدلالة الأوائل ، ويحذف من الأوائل والأواخر معاً لأن في كلّ
منهما ما يدلّ على المحذوف من صاحبه .

ومقتضى النصّ ، وطبيعة التناظر والتوازن فيه مع ما يقتضيه
التكامل في المعاني تهدي إلى المحذوفات .



(١) انظر كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز »
الباب الأول .

الأمثلة :

- المثال الأول : في حذف جواب (لولا) .
يقول الله تعالى في سورة (النور) :

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

- أي : لعدّ بكم ولعاقبكم على ما افترتيم من حديث الإفك .
وقد جاء جواب (لولا) هذه مصرحاً به بعد ثلاث آيات من السورة نفسها ، فقال الله تعالى :

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ

فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾

* * *

- المثال الثاني : في حذف جواب (لو)
يقول الله تعالى في سورة (البقرة) :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ

كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

- أي : أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون لا تبعوهم مع ذلك ؟!

وبدهي أن اتباع من لا يعقل ولا يهتدي اتباع مرفوض عند الذين يملكون أدنى مستويات التفكير الصحيح .

ويقول الله تعالى في سورة (الزمر) :

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ

﴿٤٣﴾

أي : أولو كان الشفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون يتخذهم
المشركون شفعاء لهم من دون الله ؟!

وبدهي " أن " هذا العمل يدل " على فساد الرأي ، وخيبة
المسعى .

* * *

ويقول الله تعالى في سورة (الزخرف) :

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِهَدًى
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ۖ

أي : لبقيتهم تقتدون بآبائكم ؟!

وبدهي " أن " هذا من فساد الرأي ، وضلال العمل .

ولحذف جواب (لو) نظائر أخرى ذوات عدد في القرآن
الكريم .

* * *

المثال الثالث : في حذف جمل كثيرة لدلالة السياق عليها •
يقول الله تعالى في سورة (الشعراء) حكاية لما قاله لموسى
وهارون :

فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

أي : فأتياه فقالا له : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، واشتمل
هذا على دعوتهما إِيَّاهُ إِلَى الْإِيمَانِ الْحَقِّ ، وطلبا منه أَنْ يرسل
معهما بني إِسْرَءِيلَ • فقال فرعون لموسى : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ،
إِلَى آخِرِ مَا قَالَ •

* * *

ويقول الله تعالى في سورة (الفرقان) :
وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا
أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٦﴾

أي : فامتثلا ، فذهبا إِلَى الْقَوْمِ الْمَذْكُورِينَ ، فقاما بواجب
الرسالة يدعوان إِلَى اللَّهِ دَهْرًا ، ثُمَّ خَرَجَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ سِرًّا ،
فلحقهما فرعون وجنوده ، فَأَهْلَكَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وكان ذلك
من تدميرهم •

إِنَّ هَذِهِ الْفَجْوةَ الطَّوِيلَةَ بَيْنَ « أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا

بآياتنا » وبين « فدمرناهم تدميراً » تملؤها قصة موسى مع فرعون
وملكه وقومه التي جاءت مبينة مفصلة في مواضع شتى من
القرآن الكريم •



المثال الرابع : في حذف ما يقتضيه التناظر والتوازن والتكامل
في النص •

يقول الله تعالى بعد آيات الحث على الاتفاق في سورة
(البقرة) :

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٣٦﴾

ففي هذا النص محذوفات يقتضيها التناظر والتوازن
والتكامل ، تقديرها كما يلي :

الشیطان ينهاكم عن الاتفاق في سبيل الله ، إذ يعدكم الفقر
على سبيل التخويف منه • ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضت منكم
إسرافاً في البذل وتبذيراً •

والله ينهاكم عن الفحشاء وعن التبذير ، ويأمركم بالبذل
في سبيله وفي وجوه الخير • ويعدكم إذا عصيتم واستغفرتهم

مغفرة منه ، وإذا أتقنتم في سبيله أن يعطيكم ويخلف عليكم
ويزيدكم فضلاً منه والله واسع عليم .

فالعناصر المتقابلة التي يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل
في النص نلاحظها في الميزان التالي :

الشيطان « لعنه الله »

الله « جل جلاله »

- | | |
|--|--|
| ١ - أمر بالإنفاق في سبيله . | ١ - نهى عن الانفاق في سبيل الله . |
| ٢ - نهى عن الفحشاء . | ٢ - أمر بالفحشاء . |
| ٣ - نهى عن الانفاق والتبذير في وجوه الإثم . | ٣ - أمر بالانفاق والتبذير في وجوه الإثم . |
| ٤ - وعد بالآخلاق والفضل مقابل الانفاق في سبيله . | ٤ - وعد بالفقر وخوف منه في مجال الانفاق في سبيل الله . |
| ٥ - وعد بالمغفرة ولو ح بالجزاء . | ٥ - شكك بالجزاء ورغب في اغتنام العاجلة . |

والمذكور أو المشار إليه في النص بعض هذه العناصر
المتقابلة ، أمّا سائرهما فقد حذف ، لدلالة مقابلهما عليها ، أو
لدلالة النص بجملته عليها ، بمقتضى التوازن والتناظر والتكامل .

أمّا الأمر بالإنفاق في سبيل الله منها فقد جاء في الآيات
السابقة لهذا النص .

وبدهي أن الحكمة توجب اتباع العناصر التي جاءت في
هداية الله ، أمّا اتباع العناصر المقابلة لها فهو تقيض الحكمة ،
وهو من ضلالة الشيطان ، ولذلك قال الله تعالى في الآية الثانية
من النص :

« يؤتي الحكمة من يشاء ومن يئوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » وهم أصحاب العقول العميقة المتدبرة الواعية للحقائق •

وإذا كان الحكيم قد أوتي خيراً كثيراً ، فمن حرم من الحكمة فقد حرم من خير كثير •

وإذا كان المتذكر المتعظ بهذا هم أولوا الألباب وحدهم ، فمن لا يتذكر ولا يتعظ لا لب له ، أي ليس لديه عقل يبحث عن عناصر الحكمة ويمسك بها ، ثم يرشد إليها الأجهزة المهيمنة على السلوك في داخل الانسان •

* * *

ويقول الله تعالى في سورة (الحديد) :

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَلَّا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

فالتناظر والتوازن والتكامل في هذا النص يدل على أن في الآية الأولى منه حذفاً دل عليه ما جاء في الآية الثانية منه •

فالمصيبة المذكورة في الآية الأولى قد جاء في الآية الثانية ما يناسبها وهو الأسى على ما فات ، أي الحزن • ولكن الفرح

الذي جاء في الآية الثانية لم يأت في الآية الأولى ما يناسبه ، فدلّ هذا على أنّ في الآية الأولى محذوفاً ، قد طوي ذكره في اللفظ لوجود ما يدلّ عليه ويشير إليه •

والتقدير كما يلي :

ما أصاب من مصيبة (ولا نزل من نعمة) في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها • إنّ ذلك على الله يسير • لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم •



ويقول الله تعالى في سورة (المائدة) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبَّيْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ

وَرِمَاحُكُمْ ①

أي : بشيءٍ من الصيد وأنتم حرّم ، بدليل قول الله تعالى في الآية التالية :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ②

وقوله تعالى في الآية التي بعدها :

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعَالِكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ③ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ

الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ④

ويقول الله تعالى في سورة (الأعراف) :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَاطَّيَّبَتْ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

أي : هي للذين آمنوا ولغيرهم في الحياة الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : « خالصة » يوم القيامة « أي : خاصة للذين آمنوا وحدهم يوم القيامة » .

ويظهر أن غير المؤمنين قد أهمل ذكرهم في اللفظ ، لأنهم لا يهتمون بملاحظة ما سخر الله لهم في الحياة الدنيا ، وإشعاراً بعدم الاكتراث بهم ، إذ أعرضوا عن الإيمان بالله الخالق الرازق ، ولم يلتفتوا إلى آيات الله في كونه ومنها عنايته بعباده ونعمته الكثيرة عليهم ، بل جحدوها وكفروا بالمنعم بها .

ويقول الله تعالى في سورة (الكهف) :

وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٦٧﴾

حكاية لما قاله الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام ، أي : يأخذ كل سفينة غير معية غصباً ، بدليل قوله قبل ذلك في الآية نفسها : « فأردت أن أعيها » .

وأرى هذا التقدير أولى من تقدير « صالحة » إذ في النص ما يدل عليه ، كما أن كلمة « صالحة » قد لا تفي بالمراد ، لأن

المعية قد تكون صالحة للسير ، لكنها معيبة تشعر بأن أصحابها
 مساكين لا يملكون ما يصلحونها به ، بخلاف كلمة « صالحة »
 فإنّ مقابلها يحسن أن يقال فيه : فأردت أن أفسدها ، لا
 « فأردت أن أعيبها » .

ويقول الله تعالى في سورة (الزمر) :

أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
 قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَ الْأَلْبَابِ ﴿١٠٠﴾
 لقد حذف في صدر الآية المقابل المعروض للمقارنة ، للعلم
 به بمقتضى التقابل والتناظر ، والتقدير كما يلي :

أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
 ويرجو رحمة ربه ، كمن ليس كذلك فهو لا يقنت ، ولا يحذر
 الآخرة ، ولا يرجو رحمة ربه ؟

والجواب بداهة يتضمن نفي التساوي بينهما .

ولكن ما هو السبب الذي يجعل فريقاً من الناس ينهج نهج
 القسم الأول ، وفريقاً آخر ينهج نهج القسم الثاني ؟

قد يكون السبب أن الأول يعلم ، أي يسعى في اكتساب
 العلم ، وأنّ الثاني لا يعلم ، أي لا يسعى في اكتساب العلم بل
 يعرض عنه .

إذن فليطرح السؤال لا تتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين
الذين يعلمون والذين لا يعلمون •

« قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

والجواب بداهة : لا يستويان •

حسناً : فلماذا يتعظ فريق فيسعى في اكتساب العلم ؟
ولا يتعظ الفريق الآخر ، لذلك فهو لا يسعى في اكتساب العلم ؟

والجواب لأنّ الفريق الذي يتعظ هو الفريق الذي لديه
لبّ يتعظ به : « إنّما يتذكّر أولوا الألباب » •

وفي نصوص أخرى جاء الجواب عن سؤال أخير ، وهو :
أين ذهبت ألباب الذين لا يتعظون ؟

وقد أرجعت هذه النصوص الأسباب إلى دوافع نفسية
أهمها الكبر ، والرغبة بالفجور ، وحبّ العاجلة • وهذه الدوافع
التي استجابوا لها بإراداتهم ، قد كان باستطاعتهم بحسب تمكين
الله لهم أن لا يستجيبوا لها ، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا ،
واتبعوا وساوس الشيطان ، واتبعوا خطواته •

* * *

القاعدة الحادية عشرة

« حول أن القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض »

من الحقائق الثابتة أن القرآن العظيم لا اختلاف فيه ولا تناقض ، لا بين نصوصه بعضها مع بعض ، ولا بين نصوصه والواقع ، ومن الواقع الحقائق العلمية •

فعلى المتدبر لكتاب الله أن يتفكر ويتأمل فيما يبدو له من اختلاف أو تناقض في القرآن ، بالنظر في سياق النصّ سوابقه ولواحقه ، ليفهم كل فكرة ضمن حدودها التي تخرجها عما قد يبدو لذي النظر السطحي من اختلاف أو تناقض ، وتنظيمها في سلك موضوع متكامل •

ومن الحقائق الثابتة أن القرآن العظيم متكامل المعاني ، يتمم بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ولا ينقض بعضه بعضاً • ومن الحقائق الثابتة أن القرآن العظيم حق لا ريب فيه ، فلا يمكن أن يختلف مع الواقع في شيء •

كما قال الله تعالى في سورة (النساء) :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٦﴾

أي اختلافاً عن الحق والواقع ، واختلافاً وتناقضاً في دلالات
عناصره .



إنّ كلّ ما يقال من تخالف أو تناقض أو تضادّ في النصوص
القرآنية فهو وهم فاسد ، أو ادّعاء كاذب ، وأساس الوهم الفاسد
فهم خاطيء ، وأساس الادّعاء الكاذب مغالطة مقصودة .

ويرجع اختلاف النصوص إلى تكاملها ، واحتلال كلّ منها
مساحة من الموضوع العامّ الذي تحدّث عنه وتعالجه بالبيان .

وباستطاعتنا أن نقول : إنّ لكلّ موضوع مركّب من
جملة أفكار خريطة ذات أبعاد وحدود ومقاييس . ولكلّ فكرة
من هذه الأفكار رقعة من الخريطة ذات حدود . ويأتي الخطأ من
توسيع حدود بعض الأفكار ، حتى تأخذ من رقعة غيرها نصيباً
ليس لها . وهذا عدوان فكريّ على مواطن أفكار أخرى .

وعمل المتدبّر لكلام الله يتم بأن يضع معنى كلّ آية وكلّ
جملة في الموضع الملائم له ، وعلى مقدار نسبته من ساحة المعاني ،
فلا يعمّم تعميماً زائداً على المراد ، ولا يخصّص تخصيصاً زائداً
على المراد ، ولكن يجمع ما اختلف من النصوص حول موضوع
واحد ، ويؤلّف بينها تأليفاً تامّاً يملأ بها ساحة الموضوع حسب
مساحته من خريطته ، ويعطي كلّ نصّ منها على مقداره .



امثلة :

المثال الاول :

يقول الله تعالى في سورة (النساء) :

وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿١٨٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨٩﴾

ففي هذا النص " قد يتوهم التناقض بين قوله تعالى :
« قل : كلٌّ من عند الله » وقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

ولكن المتدبر الحصيف لكلام الله يلاحظ بالتأمل أن المعنى المراد من النص هو على الوجه التالي :

إِنَّ ما ينزل بالناس من نعم ومصائب مما يحبون ومما يكرهون هو من عند الله ، وبقضائه وقدره ، أما الحسنات منها فمن فضل الله ، ومن فيض جوده وعطائه ، وأما السيئات منها فبسبب من الانسان نفسه ، إِمَّا لِأَن ذنبه هو السبب في استحقاقه العقوبة ، وإِمَّا لِأَن تربيته وتأديبه يقتضيان إذاقته بعض ما يكره في حياته من مصائب وآلام ، وإِمَّا لِأَن امتحانه لاستكمال صوره إلا بإصابته ببعض ما يكره . فمصلحة الانسان نفسه هي التي اقتضت أن يصيبه من الله بعض ما يكره في الحياة .

وأما الجمع بين النصوص الدالة على أن من المصائب ما هو للابتلاء ، ومنها ما هو للتربية والتأديب ، ومنها ما هو للعقاب المعجل في ظروف هذه الحياة الدنيا ، وبين قول الله تعالى في سورة (الشورى) :

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٥٠﴾

نظراً إلى ما جاء في هذه الآية من تعميم يدل على أن كل المصائب التي أصابت المخاطبين هي بسبب ما كسبت أيديهم •
فهو يتم بتخصيص المراد من التعميم الوارد في هذه الآية ضمن أحد وجهين :

الأول : أن هذه الآية تتحدث عن المصائب العامة التي تشمل أمة من الأمم أو قوماً من الأقوام ، فهذه المصائب التي لها صفة العموم والشمول ، إنما تكون على سبيل العقوبة العامة ، بسبب ما كسبت الأمة أو القوم من سيئات ومخالفات ، ويعفو الله عن كثير •

الثاني : أن سياق الآية يدل على أن ما جاء فيها خطاب للمشركين المعاندين ، فالمصائب الجماعية التي كانت تنزل بهم قد كانت بسبب عنادهم وجحودهم وكفرهم ، ومعصيتهم لله والرسول ، ولذلك جاء في الآية التي بعدها قول الله تعالى لهم :
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٥١﴾

* * *

المثال الثاني :

يوجد في النصوص القرآنية ما يدلّ على أنّ الله خالق كلّ شيء ، وفيها ما يدلّ على أنّ الله عليم بكلّ شيء ، ما كان وما هو كائن وما سيكون في المستقبل ، بما في ذلك أعمال العباد التي يكسبونها باختيارهم الحرّ ، وفيها ما يدلّ على أنّ كلّ شيء بقضاء وقدر ، وفيها ما يدلّ على أنّ الله لا يكلّف نفساً إلّاّ وسعها ، وأنّ مسؤولية الإنسان مرتبطة بأعماله الإرادية التي يعملها باختياره الحرّ ، وفيها ما يدلّ على أنّ الله حكيم عادل لا يظلم أحداً مثقال ذرّة ، وأنّ كلّ نفس رهينة بما كسبت ، وأثّه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأثّه متى كان العمل صادراً عن غير إرادة الإنسان كان غير مسؤول عنه ولا محاسب عليه ، وأنّ أعمال الله وأحكامه منزّهة عن العبث .

ويتصوّر بعض الناس وجود تناقض في بعض هذه النصوص ، وهذا التصوّر ناشئ عن كونهم لم يستطيعوا أن يضعوا كلّ نصّ منها ضمن دائرته وحدوده ، التي يتوافق فيها وينسجم مع سائر النصوص .

فالنصوص التي تثبت عموم مشيئة الله لا يصح أن نفهمها فهماً يجعلها تطفئ على النصوص التي تثبت عموم حكمة الله ، وعموم عدل الله وفضله . ومجموع صفات الله عزّ وجلّ تفهم معاً كلّاً كاملاً .

والنصوص التي تثبت أن الله خالق كل شيء لا يصح أن تفهمها فهماً يطفى على النصوص التي تثبت أن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها ، وأنّ المكلفين لهم مشيئات هم يشاؤونها ويريدونها ، ولهم أعمال يعملونها ، وأنهم مسؤولون عن مشيئاتهم وعن أعمالهم . بل على المتدبر أن يضع خريطة الموضوع الذي عالجه هذه النصوص ، ويجمّعها تجميعاً حكيماً منطقياً متكاملًا متناسقًا ، ويحدّد مفاهيمها تحديداً تبقى معه دلالة كل نص منها دلالة صحيحة .

وهذا ما انتهى إليه أهل السنة والجماعة في فهمهم السيد ، وهو فهم علماء السلف رضوان الله عليهم ، على خلاف مذهب المعتزلة الذين سيطرت على أفكارهم نصوص الحكمة والعدل والتكليف ، فبالغوا في التطرف ، فعطّلوا مفاهيم النصوص الأخرى ، وأولّوها على غير وجوها . وعلى خلاف مذهب الجبرية الذين سيطرت على أفكارهم عمومات النصوص التي تثبت أن الله خالق كل شيء ، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويختار ، وتوهّمت مفاهيم لنصوص أخرى ، فبالغوا في التطرف ، فعطّلوا مفاهيم نصوص الحكمة والعدل والتكليف ، وأولّوها على غير وجوها .



وبناء على هذه القاعدة نقول : لا بدّ أن يتطابق المعنى

الصحيح للنصّ الذي تعرّض لبعض الحقائق العلمية ، مع
الحقائق العلمية الثابتة •

وحين لا يلاحظ التطابق فلا بدّ أن يرجع ذلك إمّا لأنّ
ما ادعي أنه حقيقة علمية قد كان ادعاءً غير صحيح ، وإما لأن
ما ادعي أنه تفسير قاطع للنصّ قد كان ادعاءً غير صحيح •
وعلى هذا فعلى المخطيء أن يراجع خطأه ، ويستأنف بحثه من
جديد •

وقد يقضي المنهج السليم بترك الأمر معلقاً ريثما يتوصل
البحث العلمي في الكون إلى الحقيقة النهائية •



القاعدة الثانية عشرة

((حول تتبع التفسير المأثور لمعنى النص))

على متدبر كلام الله أن ينظر في التفسير المأثور لمعنى النصّ القرآني ، فهو حريٌّ أن يكون في كثير من الأحيان فهماً صحيحاً ، وإن لم يكن كاملاً شاملاً لكل ما يهدف إليه النصّ القرآني .

ويشمل التفسير المأثور مافهمه الصحابة والتابعون .

أمّا البيان النبويّ لمعنى النصّ القرآني ، فإذا صحّ فهو الذي يجب المصير إليه ، وقد يكون البيان النبوي بعض ما اشتمل عليه عموم النصّ ، أو بعض ما اشتملت عليه دلالاته ، فيكون ما جاء في البيان أحد أفراد مادلّ عليه عموم النصّ القرآني ، أو أحد المعاني التي اشتملت عليها دلالاته .

وينبغي النظر أيضاً فيما ورد من آراء المفسرين المعتمدين ، وأقوال أهل التأويل المعبرين ومفاهيمهم ، فمن شأن هذا النظر أن يبصّر المتدبر بجوانب قد تغيب عنه ولا تخطر على باله .

وليس معنى النظر فيما ورد من آراء المفسرين وأقوال أهل التأويل أن يتأثر المتدبر تأثراً كاملاً ، ولكن أن يتأمل ويحرّر ويميّز المقبول من المردود .

وليس علم التدبّر حشراً لأقوال وآراء أهل التأويل ،
والإكثار من عرض ما قال الناس ، فلا يكون التدبّر متدبّراً
حقاً حتى يعرف ما ينتقي من آراء أهل التأويل ، ويعرف ما يدع ،
ويعرف ما هو ساقط مردود ، وما هو محتمل ، وما هو راجح ،
وما هو حقٌّ لا ردّ له ، وما هو بعض المعنى المراد ، وما لا يمكن
أن يكون مراداً . أي أن تكون لديه الملكة لذلك ، وإن كان
عرضة للخطأ في بعض الأحيان .

ويتصوّر بعض الباحثين أن كثرة العلم بكثرة جمع أقوال
الناس في المسألة ، وكثرة حفظ هذه الأقوال .

وأرى أن وفرة العلم إنما تكون باستجلاء ما هو الحق ،
أو ما هو أقرب إليه إن لم يتيسّر معرفة الحقّ تماماً .

وأما ما عدا هذا فمن الخير أن لا يشغل مساحة من الفكر ،
ولا من أوراق الكتاب ، وأن لا يأخذ قدراً من الجهد ، ولا قدراً
من الوقت ، إلا أن يكون رأياً ثابتاً لمعارض مبطل ، فيجب تفنيده
وإسقاطه حتى لا يؤثر على عقول المتعلمين .

* * *

القاعدة الثالثة عشرة

«حول البحث عن أغراض الاختلاف في التعبير في مختلف النصوص»

على متدبّر كتاب الله أن يتأمل بحثاً عن أغراض الاختلاف في التعبير ، الذي اشتملت عليه النصوص القرآنية التي تعالج موضوعات متماثلة أو متشابهة أو متقاربة . فعسى أن يهتدي إلى دلالات مقصودة زائدة على مجرد التنويع في أسلوب التعبير .



من الملاحظ في القرآن العظيم وجود التنويع في أسلوب التعبير ، وقد لا يكون ذلك لمجرد التنويع في البيان ، بل قد يشتمل على أغراض أخرى مقصودة في الدلالة ، لذلك كان على المتدبّر لكلام الله أن يبحث عن هذه الأغراض ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، لا سيّما في النصوص التي تعالج موضوعات متماثلة أو متشابهة ، أو متقاربة .

فكثيراً ما يهدي التأمل المتعمّق الدقيق لاستبانة دلالات مرادة مختلفة تدل عليها التعبيرات المختلفة ، وقد يتحصل من ذلك لطائف معانٍ أشارت إليها الفروق الواردة في أساليب التعبير .



الأمثلة :

المثال الأول : يقول الله تعالى في سورة (النساء) :
لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿١٥﴾

ويقول الله تعالى في سورة (فاطر) الآية ١٩ وفي سورة
(غافر) الآية ٥٨ :

[وما يستوي الأعمى والبصير] •

ويقول الله تعالى في سورة (المائدة) :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴿٦٥﴾

ويقول الله تعالى في سورة (الحشر) :

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٦٥﴾

فهذه مجموعة من النصوص تتحدث عن نفي التساوي بين
متقابلين ، ويلاحظ فيها أنه لم يأت فيها تكرير حرف النفي (لا)
أو (ما) في جانب الطرف المقابل •

بخلاف قول الله تعالى في سورة (فاطر) :

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٦٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٦١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ
وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٦٢﴾ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٦٣﴾

وقول الله تعالى في سورة (فُصِّلَتْ) :

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٢٥﴾

والتأمل يهدي إلى أنَّ ما ذكرت فيه كلمة (لا) في الطرف المقابل ، يحملُ دلالة عدم التساوي النسبي بين أفراد كلٍّ من المتقابلين ، إضافة إلى عدم التساوي العام بين المتقابلين •

فالظلمات متفاوتة غير متساوية ، والنور متفاوت غير متساوٍ ، إضافة إلى نفي التساوي بين الظلمات بوجه عام والنور بوجه عام •

وكذلك الظلُّ وما فيه من برودة هو متفاوت بين أفرادهِ ، والحرور متفاوت بين أفرادهِ ، فحرور من الدرجة الدنيا ، وحرور من الدرجات العليا ، مع عدم التساوي بين الظلِّ والحرور بوجه عام •

وكذلك الأحياء والأموات • فالأحياء غير متساوين ، إذْ فيهم الصالح والفاسد ، والمؤمن والكافر ، والمسلم والمجرم ، والأموات غير متساوين ، إذْ فيهم المنعم في البرزخ وفيهم المعذب ، على حسب أعمالهم في الدنيا ، وفيهم السعيد والشقي • هذا مع عدم التساوي العام بين صنف الأحياء وصنف الأموات •

وكذلك الحسنة والسيئة ، فأفراد جنس الحسنة متفاوتة ، وأفراد جنس السيئة متفاوتة ، ولا تساوي بدهاءة بين الحسنة والسيئة بوجه عام •

أمّا النصوص التي لم يأت فيها هذا التكرير لحرف النفي فلم تقصد فيها هذه الدلالة ، إنما قصد فيها مجرد نفي التساوي بين المتقابلين •



المثال الثاني : يقول الله تعالى في سورة (النحل) :
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ ﴿١٧﴾

في هذه الآية لم يأت عطف النجوم على الليل والنهار والشمس والقمر ، بل جاء فيها الكلام على النجوم مستأنفاً ببيان حكم تسخيرها بأمر الله •

ويتضح لنا بالتأمل أنّ الليل والنهار والشمس والقمر قد سخرها الله لنا نحن سكان الأرض ، فقال تعالى في شأنها :
« وَسَخَّرَ لَكُم » •

أمّا النجوم فهي مسخّرات في الكون العظيم ، والكثير منها ليس مسخّراً لنا ، فهي إذن مسخّرات بأمر الله ، وقد طوي ذِكر من هي مسخرة له ، أو ما هي مسخرة له •



المثال الثالث : يقول الله تعالى في سورة (التوبة) :

قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴿٥١﴾

ويقول الله تعالى في سورة (الحشر) :

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿٢٠﴾

يلاحظ في هاتين الآيتين أن فعل (كتب) عُدِّي في الأولى باللام : « كتب الله لنا » ، وعُدِّي في الثانية بعلی : « كتب الله عليهم » مع أن المكتوب في كل منهما من نوع المصائب الدنيوية .

وحين نبحت عن سرّ هذا الاختلاف يتضح لنا أن التعدية باللام قد جاءت في جانب المصيبة التي تنزل بالمؤمنين ، وهي بالنسبة إليهم نعمة من الله وليست بنقمة ، لأنها مكفرة ، ورافعة للدرجات ، لذلك قال الله لرسوله : « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

بخلاف التعدية بعلی فقد جاءت في جانب المصيبة التي نزلت بأهل الكفر : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا » .

* * *

المثال الرابع : يقول الله تعالى في سورة (الأنعام) :

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ^ط يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ^ع
ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

ففي جانب إخراج الحي من الميت استعمل فعل (يخرج)

الدالّ على التجدد كما يقول البلاغيون ، وفي جانب إخراج الميت من الحيّ استعمل اسم الفاعل (مخرج) وهو وصف له معنى الثبات ، وليس فيه معنى التجدد •

ويخطر لي أنّ هذا التنويع في التعبير قد يتضمن الإشارة إلى أنّ إخراج الحيّ من الميت يأتي متدرجاً في أطوار ، أمّا إخراج الميت من الحيّ فيأتي مرة واحدة ، دون أن يمر في أطوار ، فالحيّ يموت حين يلفظ النفس الأخير •



القاعدة الرابعة عشرة

« حول النظر فيما ورد من اسباب النزول »

على متدبر كتاب الله وآياته المنزلات أن ينظر فيما ورد من أسباب النزول ، فكثيراً ما يلقي سبب النزول الذي صحّ سنده الضوء على المعنى المراد من النصّ القرآني .

ويلزم مع ذلك مراعاة قاعدة : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » . والمراد من هذه القاعدة : أن العبرة بعموم النصّ بمناسبة حادثة ما ، أما الحادثة الخاصة التي كانت سبب نزول النص فلا يجوز أن تعتبر مخصصةً لدلالة النص العامة ، بل هي وقائرها داخلة في عموم الحكم الذي جاء في النصّ إن كان عاماً دخولاً أو كلياً .

ويتجاوز بعض الناس الحدّ المراد في تطبيق هذه القاعدة ، فيقتطعون من الآية جملة ، ويجردونها عن سياقها ، ويفهمون منها معنىً عاماً ، أو معنىً خارجاً عما وردت له في السياق كلياً ؛ مع أن الجملة لم تأتِ على أنها قاعدة كلية ، وما جاء في النصّ بعض تطبيقاتها ، أو بعض أفرادها . وبهذا التجاوز يتوهمون أن سياق النصّ هو خصوص السبب ، فيقطعون النص عن سياقه ويقولون : العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب ، مع أن النصّ كلّه وحدة متماسكة ، وليس بعضه سبباً لبعض . لذلك فلا يصحّ أن تجزأ كل فكرة وردت في جملة

من الآية ، ثمّ يقال : « العبرة بعموم النصّ لا بخصوص السبب » ما لم يكن إيرادها في الآية بوصفها قاعدة عامّة ، وما جاء في الآية مما استدعاها مندرج في عمومها ، كالقواعد والأحكام الكلية التي تأتي في أواخر الآيات ، نحو : « والله بكل شيء عليم » و « وهو على كلّ شيء قدير » و « والله لا يحب كلّ مختالٍ فخور » و « وكان الله غفوراً رحيماً » وأمثال هذه الأحكام والقضايا الكلية .



فعلى المتدبّر أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النصوص والجمل القرآنية عن سوابقها ولواحقها ، حتّى يتأكد تماماً من أنّ مجموعة الآيات التي اقتطعها ، لا تكون مع غيرها وحدة متماسكة يؤثّر الاقتطاع في فهم دلالاتها .

إذّه كثيراً ما يلاحظ في النصوص القرآنية ارتباط مجموعة من الآيات في موضوع جزئي من السورة، واقتطاع بعض منها وفهمه على أنّه نصّ منفصل قد يجنح بالمتدبّر عن فهم المراد ، والواجب عليه أن ينظر إليها مجتمعة ليفهم دلالات النصّ وترابط معانيه ، وأن لا يقطع آية أو فقرة من آية ، ويفهمها فهماً منفصلاً ، فمن شأن هذا الاقتطاع أن يوهم غير المراد ، أو يوقع في الخطأ ، أو يضعف من كمال دلالات النصّ . ومن إيهام معنى غير مراد تعميم غير مقصود .



وكثير ممّا يذكره المفسرون على أنّه سبب لنزول آية من الآيات ليس له سند صحيح يثبتّه ، كما أنّه قد يكون غير صالح لإلقاء الضوء على المعنى المراد ، بل قد يحوّل فكر المتدبّر لكلام الله عن الفهم الصحيح المتسق مع جملة ما جاء في كتاب الله • وقد يصادف المطالع في كتب التفسير حادثة مكيّة ذكر بعض المفسّرين أنّها سبب لآية مدنية ، أو العكس ، مع وجود الفارق الزمني الطويل في الصورة الأولى ، ومع تأخر حدوث ما ذكر أنّه سبب النزول في الصورة الثانية •

لذلك لا يصح اعتماد جميع ما ذكره المفسّرون على أنّه من أسباب النزول ، واعتباره أساساً لتحديد معاني النصوص ، إلّا أنّ يثبت بسند صحيح ، ولا يتنافى مع تاريخ نزول النصّ أو يكون منسجماً مع دلالات النصّ الواضحة دون أن يكون فيه ما يחדش اعتباره سبباً لنزول النصّ الموضوع للتدبّر •



القاعدة الخامسة عشرة

« حول التكرير وأغراضه »

على متدبّر كلام الله أن يبحث في كلّ نصّ يبدو له أنه من النصوص المكرّرة في القرآن ، ليكتشف غرض التكرير إذا كان النص مكرراً حرفياً ، وليكتشف فوارق المعاني إذا كان النص المكرّر مختلفاً ولو بعض الشيء ، فكثير من النصوص التي يتوهم فيها التكرار هي ليست في الحقيقة مكرّرة ، ولكنّها متكاملة يؤدي بعضها من المعاني المرادة ما لا يؤديه البعض الآخر ، بزيادة بعض الأفكار على أصل الموضوع الذي يراد بيانه ، وذلك من جهات مختلفة •

ولاكتشاف أغراض التكرير الحرفي لا بدّ للمتدبّر من النظر في سياق الموضوع ، فقد يكون للنصّ الواحد عدّة أهداف يمكن أن يدلّ عليها ، ومع كلّ سياقٍ يبرز أن المراد التركيز على واحد أو أكثر منها ، أو يكون في النصّ الواحد عدّة أفكار جزئية ، ويؤتى به في مواضع متعدّدة من القرآن ، للتناسب بين الموضوع وما فيه من أفكار ، وبين بعض أفكار النصّ المكرر •



فمن النصوص التي تبدو أنها مكررة وهي ليست كذلك بل هي متكاملة ما يلي من الأمثلة :

المثال الأول : يقول الله تعالى في سورة (الصف) في شأن الكافرين ، وهي سورة مدنية :

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ ﴿٨٦﴾

لقد نزل هذا النص في أواسط المرحلة المدنية ، ثم نزل بعده في أواخرها قول الله تعالى في سورة (التوبة) في شأن اليهود والنصارى :

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

هذان النصان متشابهان ، ولكنهما ليسا بمتماثلين متطابقين تماماً ، فما في الصف : (يريدون ليطفئوا) وما في التوبة : (يريدون أن يطفئوا) • وما في الصف : (والله متمّ نوره) وما في التوبة : (ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره) •

ونظراً إلى هذا الاختلاف بين النصين ولو كان جزئياً ،
فالأولى البحث عن اختلاف في دلالتيهما ، ليتكاملا في أداء
المعنى الكلّي .

ويبدو لي في دلالة : (يريدون ليطفئوا) أنهم يريدون
مرادات مختلفة يتخذونها وسائل ليطفئوا نور الله بأفواههم . أما
(يريدون أن يطفئوا) فتدل على أنهم يريدون الإطفاء ، ولعلّهم
بعد اتخاذ الوسائل المختلفة تصوروا أنهم قد وصلوا إلى مرحلة
الإطفاء ، بعد أن كانوا في مرحلة إرادة الوسائل التي توصلهم
إلى الإطفاء الذي هو هدفهم الأخير .

والفارق الآخر بين النصين ، والملاحظ بين : « والله متم
نوره » وبين « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » يتناسب مع الفارق
الأول ، وذلك لأن الكافرين ما داموا في مرحلة إرادة الوسائل
التي من شأنها أن تصل إلى إطفاء نور الله ، فالله متم نوره ،
والتعبير هنا لا يزيد على إثبات وصف إتمام النور . لكنّهم
إذا وصلوا بعد اتخاذ الوسائل إلى مرحلة إرادة إطفاء نور الله ،
فلمناسب له أن يقال باهتمام : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

فتكاملت بذلك المعاني الحركيّة الدالة على الدعوة، وأعدادها،
وأعمالهم ضدّها ، وإجباط الله لأعمال الأعداء .

هذا مع تأكيد أن الأساس في هذه الرسالة الربّانية واحد ،
دلّ عليه في كلّ من النصّين قول الله تعالى : « هو الذي أرسل

رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون» •

* * *

المثال الثاني : يقول الله تعالى في سورة (الأعراف) :
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٨﴾
ويقول الله تعالى في سورة (الزمر) :

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١٨٩﴾

هاتان آيتان مكيتان ، وقد نزلت آية (الأعراف) أوّلاً ،
ويلاحظ أنّ فيها زيادة بيان غاية السكن من خلق الزوجة •
أمّا آية (الزمر) ففيها زيادة بيان أنّ النفس الواحدة الأولى ،
وهي آدم عليه السلام ، قد مرّت عليه مدّة بعد خلقه كان فيها
وحيداً ، قبل أن يخلق الله منه زوجه ، بدليل أنّ العطف فيها قد
جاء بحرف (ثم) الذي يدلّ على التراخي ، بخلاف آية
(الأعراف) فالعطف فيها بحرف (الواو) الدالّ على مطلق
الجمع كما يقول النحاة •

المثال الثالث : أنزل الله في أوائل العهد المدني قوله في
سورة (البقرة) :

لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

ثمّ أنزل في أواخر العهد المدني قوله في سورة (المائدة) :

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ

هاتان آيتان مديّتان ، أمّا آية (البقرة) منهما فقد دلّت على فكرة كسب القلب ، وهو قصد الحالف أن يحلف اليمين ، لا أن تجري اليمين على لسانه وهو لا يقصد الحلف ولا يريد .
وأمّا آية (المائدة) فقد دلّت على فكرة ربط اليمين ربطاً مجزوماً به (عقّدتُمُ الأيمان) .

إنّ فكرة (كَسْبِ القلوب) قد تشمل ما دون الإرادة الجازمة ، من الخاطرة والرغبة والهمّ ، لكنّ هذه من الأمور التي عفا الله عنها ، فاحتاج نصّ (كسب القلوب) إلى بيان يكشف المراد ، فأنزل الله في (المائدة) وهي من أواخر ما نزل من السور (ولكن يؤاخذكم بما عقّدتُمُ الأيمان) .

فتكامل النصّان على بيان الحكم المراد .

* * *

هذه جملة أمثلة ظهر لنا من أغراض التكرير فيها تكامل الفكرة في الموضوع ، والتدرّج التعليمي ، مع حصول فائدة التأكيد لأصل فكرة الموضوع .

* * *

ومن أغراض التكرير حكاية الواقع المكرّر ، سواء أكان ذلك فيما حدث في الماضي ، أو فيما سيحدث في المستقبل ، ومن أمثلة ذلك ما يلي :

المثال الأول : أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (ص) :
إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾

ثمّ أنزل الله في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (الحجر) :
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

ولدى التأمل يظهر لنا احتمال قوي نرجّحه ، وهو أنّ الله تبارك وتعالى قد قال قولين للملائكة في فترتين زمنيّتين :
فالمرّة الأولى : حينما كان آدم في مرحلة الطين ، والقول هو ما جاء في سورة (ص) •

والمرّة الثانية : حينما كان آدم في مرحلة الحمأ المسنون (أي المصوّر) أو في مرحلة الصلصال ، وهي مرحلة جفاف الطينة التي اسودّت وتغيّرت رائحتها وصوّرت ، فكانت بعد جفافها صلصالاً كالنفخار ، والقول هو ما جاء في سورة (الحجر) •



المثال الثاني: أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (الأنعام):
 وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا
 وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
 لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾

ثم أنزل الله في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (المؤمنون):
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا
 تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٩٢﴾

ثم أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (السجدة) :
 وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا
 نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢٧﴾

هذه نصوص ثلاثة تحكي واقعاً سيتكرر حصوله في
 أزمنة ثلاثة :

فالكافر حينما يوقف على النار يوم الدين يتمنى أن يردَّ
 إلى الدنيا ليكون من المؤمنين ، ولكن لا يستجاب لأمانيه ، فقد
 انتهى دور الامتحان ، وجاء دور الجزاء • وهذا الموقف هو
 ما جاء بيانه في سورة (الأنعام) •

والكافر عند الموت يقول : « رب ارجعونِ لعلِّي أعمل

صالحاً فيما تركت » فيُرفض طلبه مع زجر ، وهذا الموقف هو ما جاء بيانه في سورة (المؤمنون) •

والكافر في موقف الحساب يوم القيامة يقول مثل مقالته عند الموت ، ولكن لا يلتفت إلى طلبه ، لقد سبق أن رفض طلبه هذا . وهكذا نلاحظ في هذه النصوص الثلاثة أنه لا تكرير فيها ، لأن كل نص منها يتحدث عن موقف من المواقف • يضاف إلى ذلك قاعدة التكامل في هذه النصوص ، ففي كل واحد منها دلالات انفرد بها ، كما فيها تأكيد أصل فكرة الموضوع •



ومن أغراض التكرير قصد هدف من الأهداف التي يرمي إليها النص في كل مرة ، لأنّ المناسبة استدعت قصد هذا الهدف . فمن النصوص البيانية ماله عدّة أهداف ، فيؤتى به في سياق ما لهدف منها ، وفي سياق آخر لهدف آخر ، وفي سياق ثالث لهدف ثالث ، وهكذا •

إنّ السياق مثلاً قد يستدعي الاستشهاد بجانب من جوانب قصة موسى مع قومه ، فيؤتى بلمحات منها أساسية ، مع إبراز ما استدعاه السياق ، ليكون شاهداً أو عبرة للموضوع الذي جيء بالقصة من أجله •

ثمّ يأتي سياق آخر في سورة أخرى ، وفيه ما يستدعي الاستشهاد بجانب آخر من جوانب قصة موسى مع قومه ، فيؤتى

بلمحات أساسية منها ، مع إبراز ما استدعاه هذا السياق الثاني ،
ليكون شاهداً أو عبرة للموضوع الذي جيء بالقصة من أجله .
وهكذا . فالقصة الواحدة قد يستشهد بها في عشرات من
المناسبات المختلفة ، إذ فيها لكل مناسبة ما يصلح شاهداً أو
عظة أو عبرة .

فلتطمئن قلب الرسول والمؤمنين يؤتى بقصة موسى المنصور
على فرعون وجنوده بتأييد الله له ولمن آمن معه .

ولخلع قلوب الجبابرة وجنودهم يؤتى بقصة موسى أيضاً
مع إبراز هلاك فرعون وجنوده بالفرق .

ولبيان دعوة الجبارين في الأرض إلى دين الله يؤتى بقصة
موسى ودعوته لفرعون ، وما جرى بينهما من مناظرات .

ولبيان سنة من سنن الله في إمهال الذين كفروا وطفوا
في الأرض ، مع معالجة تأديبهم بالآيات والعقوبات الجزئية ،
يؤتى بقصة موسى مع قومه ، وكيف تابعت على قومه الآيات التسع .
وهكذا إلى غير ذلك من أهداف تستدعيها المناسبات .



ومن أغراض التكرير متابعة الجرعات التربوية ، كالجرعات
الدوائية ، ويظهر هذا في نصوص الأمر بالتقوى ، وفي نصوص

الترغيب والترهيب ، وفي النصوص المبينة للأسس الاعتقادية
الايمانية ، بغية تثبيتها وتمكينها •

فقد تستدعي الحكمة التربوية مع توجيه تكليف جديد
تكرير التذكير بالتقوى ، وتكرير الترغيب والترهيب ، وتكرير
ربط ذلك بما يوجه الايمان أو يستدعيه •

* * *

الخلاصة :

ومهما أمكن استبعاد فكرة التكرير لمجرّد التأكيد كان
ذلك أولى • والبحث والتعمق في التأمل وإمعان التدبّر ، أمور
كفيلة — بتوفيق الله — أن تكشف للفكر روائع جديدة في كتاب
الله الحكيم ، لم يسبق للمتدبّرين أن تنبّهوا لها •

* * *

القاعدة السادسة عشرة

« حول النظر فيما توصلت إليه البحوث العلمية الإنسانية
في موضوع النص القرآني »

ينبغي لمتدبر النصّ القرآني بعمق أن ينظر إلى ما توصلت إليه البحوث العلمية الإنسانية في الموضوع الذي يعالجه النص ، ليكون على علم بنتائج البحوث الإنسانية ، ما كان منها حقاً مؤكداً ، وما كان منها دون ذلك ممّا هو عرضة للخطأ والصواب ، ومما هو مرفوض ظاهر الخطأ .

فمن شأن هذا النظر أن يجعل المتدبر للنصّ أكثر وعياً ، وأوسع نظراً ، وأجود فهماً ، وحسبه أن يستبعد الاحتمالات التي انكشف بطلانها وعدم صحتها ، وأن يأخذ بالاحتمالات التي غدت يقيناً علمياً أو قربية من اليقين العلمي ، وأن يرجّح منها ما كان في نظر البحث العلمي راجحاً دون جزم ولا قطع به .

ولمّا كان من المقطوع به أنه لا يمكن أن تتعارض دلالة قرآنية صحيحة مع حقيقة ثابتة ، كان من الواجب متى ثبتت حقيقة ما ثبوتاً قطعياً فهم النصّ القرآني الذي تحدّث عنها أو أشار إليها بما ينسجم معها . وبعد هذا فمن الخير أن تشطب الاحتمالات المخالفة التي أوردها المفسّرون ، هذا بشرط الوصول

إلى الحقيقة النهائية علمياً • أمّا ادّعاء الوصول إلى الحقيقة
النائية دون برهان قطعي فإنه لا يلغي الاحتمالات المخالفة ، بل
يظلّ الفهم النهائي للنصّ غير مجزوم به •

وما صار من الحقائق العلمية التي لا تقبل النقض مما تناولته
النصوص القرآنية بالتصريح أو بالإشارة ، فعلى متدبّر كلام الله
أن يكون على علم به ، حتى لا يؤول النصّ القرآني تأويلاً
تثبت الحقيقة العلمية فساداً ، ومخالفته للواقع ، وهو بصنيعه
هذا المستند إلى جهله بالحقيقة يعرّض القرآن الكريم لطعن
أعداء الاسلام وخصومه الكثيرين ، ويفتن أبناء المسلمين عن
دينهم ، إذ يجعل القرآن في نظرهم مشتملاً على مفاهيم تثبت
الحقائق العلمية خطأها ، مع أنّ الخطأ لم يكن من النصّ القرآني ،
ولا يمكن أن يكون منه بحال من الأحوال ، وإنما كان من الذي
حمّله بجهله وعدم اطلاعه على تأويل خاطيء • مع أنّ القرآن
حقّ كلّّه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكل فهم
للقرآن مخالف للواقع هو فهم خاطيء ، لا يحمل القرآن وزره ،
وإنّما يحمل وزره صاحب الفهم الخاطيء والتأويل الفاسد •

وفي الطرف المقابل نجد الذين ينزلون مع كلّ نظرية أو
فرضية حديثة يقولها علماء البحث الكوني ، قبل أن تصبح هذه
النظرية أو الفرضية حقيقة علمية ، وبهذا الانزلاق يحاولون تأويل
النصوص القرآنية تأويلات تتفق معها ، ويعتبرون ذلك هو

التأويل الصحيح ، وربما تكون تأويلاتهم شاذة وبعيدة جداً ،
ولا يحتملها سموّ الأسلوب القرآني البليغ •

وبهذا تكون النصوص القرآنية عرضة لتجديد التأويل كلما
جدّد في العلم جديد •

ومن الخير في هذا ابقاء النصّ على احتمالاته التي يصلح
لأن يدلّ عليها ، ويبقى البتّ معلقاً حتى يقول العلم الانساني في
الموضوع كلمته الأخيرة •

وظاهر أنّ هذا خاصّ في الآيات الكونية التي تركها الدين
في الأصل للبحث والتتبع الانساني ، وقد أشار إلى بعضها ،
أو أعطى فيها قواعد عامة •

أمّا ما هو من خصائص الدين كالعقائد والعبادات والأخلاق
وأحكام المعاملات وسائر الشرائع ، وكذلك ما لا يستطيع العلم
الانساني أن يتوصل إليه ، كحقائق اليوم الآخر ، وحقائق بدء
الخلق ، وأنباء الغيب ، ففهم النصوص القرآنية فيها يخضع
للأصول التي بينها فقهاء المسلمين وعلمائهم ، ولا يحتاج المتدبّر
لكلام الله أن يكون على علم بمذاهب الناس فيها ، وإن كان
بعض المطلعين عليها قد يكونون أوسع أفقاً ، وأكثر إدراكاً ، مالم
يكونوا قد تأثروا فكريّاً أو نفسيّاً بمذاهب الناس فيها • أمّا
الذين تأثروا بمذاهب الناس فإنّهم ما اطلعوا عليه بالنسبة إليهم
أكثر من نفعه ، لأنّهم سيلوون أعناق النصوص بتأويلات

لا تحتملها ، حتى تتفق مع المذاهب التي تأثروا بها ، ونظير
هذا نشأهه عند الذين تأثروا قديماً بالفلسفة اليونانية ، وعند
الذين تأثروا بالمذاهب الفكرية الحديثة ، والنظريات العلمية المعاصرة
التي لم تصل إلى مستوى الحقيقة ، ونشأهه أيضاً عند المتعصبين
لمذاهبهم الفقهية ، أو طرائقهم و فرقهم ، فمن تأثر بمذهب وتعصب
له ، زينت له نفسه تصيّد أيّة فكرة لدعم مذهبه ، وقد يجنح
فكره عن الفهم الصحيح ، لأنه لا يكون في حالة نفسية متجردة •
مع أنّ الحقّ والبحث عنه يفرض على الإنسان أن يكون متجرداً
عن أي مؤثر يتدخل فيه عامل من عوامل الهوى أو التعصب ،
لاسيما لدى تدبّر كلام الله عزّ وجل ، وفهم دين الله وأحكامه
وشرائعه لعباده •



القاعدة السابعة عشرة

« حول الربط بين الآيات وخواتيمها »

إنَّ خواتم الآيات قد تلقي الضوء على المراد مما جاء فيها ، وعلى المتدبر للآية القرآنية أن يبحث عن التناسب والترابط بين مضمون الآية وما جاء في آخرها من قضايا كلية ، إن كان في آخرها شيء من ذلك .



الأمثلة :

المثال الأول : أنزل الله على رسوله في العهد المكي قوله في سورة (الأعراف) :

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾

ثم أنزل عليه في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (فصلت) :

وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٠١﴾

فزاد النصّ الثاني التأكيد بأنّ الله هو وحده السميع العليم الذي يستجيب لمن استعاذ به .

وقد دلّ ختم الآيتين بذكر أنّ الله سميع عليم ، وأنته هو

وحده السميع العليم ، على أن المراد من الاستعاذة ليس مجرد ذكر الاستعاذة باللسان ، فالاستعاذة باللسان وحده لا تدفع عن الانسان نزع الشيطان ، وإنما الذي ينفع هو الاستعاذة اللسانية المقرونة بصدق الاستعاذة القلبية ، وذلك باحضار معناها في التصوّر ، مع اتجاه الإرادة الجازمة لذلك ، واللسان مساعد لاستجماع هذه الحالة داخل النفس .

وعلى هذا نفهم النصّ على الوجه التالي : فاستعذ بالله بلسانك وقلبك ، فالله هو السميع لما تذكر بلسانك ، والعليم بما في قلبك وتصوراتك وإرادتك . أي فهو عندئذٍ يستجيب لك فيصرف عنك وساوس الشيطان ونزغاته .

وقد تنبّه فخر الدين الرازي في تفسيره لهذا فقال : (قوله تعالى : « إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » يدل على أنّ الاستعاذة باللسان لا تفيد ، إلاّ إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة ، فكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإنّي سميع ، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإنّي عليم بما في ضميرك . وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر) انتهى .



المثال الثاني: أنزل الله في العهد المكّي قوله في سورة (النحل):

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

ثم أنزل في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (إبراهيم) :

وَأَنْتُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ^{عَلَى} إِنْ الْإِنْسَانُ

لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٤﴾

من ختم آية (النحل) بقول الله تعالى : « إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » ومن ختم آية (إبراهيم) بقوله تعالى : « إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » . نستطيع أن نستبين بعض المعاني التي يترجّح أن تكون هي المرادة في الآية والله أعلم :

قد يتبادر إلى الذهن من قوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » أنّ المراد مجرد التعبير عن كثرة نعم الله علينا التي لا نستطيع احصاءها وإن أخذنا نعد مفرداتها ، لأن كثيراً جداً منها لا نستطيع ملاحظته ولا معرفته حتى نعدّه . ومع صحة هذا المعنى ومطابقته للواقع ، يمكن لفت النظر إلى معنى آخر يشير إليه ختام الآيتين :

وهو أنّ الإنسان لئن اتّجه على سبيل الندرة — كما دلّت كلمة (إِنْ) — إلى عد نعم الله عليه مما يدرك ويلاحظ من نعم الله الكثيرة التي لا يستطيع احصاءها ، فإنه لا يحاول احصاءها ، ولا يفكر فيه ، بل تميل نفسه دائماً إلى تجاهل بعض النعم وإغفالها ، ونسبتها إلى علمه ومهارته وأعماله ، حتى لا يجد في نفسه حاجة إلى مقابلة ذلك بالطاعة والشكر .

وبسبب ذلك يقع في رذيلتين :

الأولى : استخدام النعمة في غير ما أذن الله به ، وهذا ظلم منه .

الثانية : جحود النّعم كلّها أو بعضها ، مع تفاوت نسب الجحود بين الناس ، من جحود عامّ وظاهر إلى جحود خفي ، وهذا منهم كفران للنّعمة .

ويوجد في الناس مؤمنون عصاة يتصفون بمقدار لا يتعارض مع صحة الايمان والاسلام من هاتين الرذيلتين ، مع تفاوت بينهم . ويوجد في الناس كافرون ، وهم الأكثرون ، وهم ظلومون كفّارون من دركات سفلى تتنافى مع صحة الايمان والاسلام .

وقد تكون آية (النحل) قد راعت ظلم عصاة المؤمنين وكفرانهم للنّعمة ، فجاء في آخرها : « إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أي لغفور لذنوبهم رحيم بهم ، وطّوي فيها وصف ظلمهم وكفرانهم ، مع ملاحظة ذلك تقديراً .

أمّا آية (إبراهيم) فقد تحدثت عن ظلم الكافرين وكفرانهم للنّعمة ، لذلك جاء في آخرها « إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ » أي كثير الظلم والكفران لنعم الله ، أخذاً من دلالة صيغتي المبالغة .

وإذا كان من صفات الانسان الظلم والكفران ، فمن صفات الله في مقابل ذلك أن الله غفور رحيم ، فجاء في مقابل صفة الظلم في الانسان صفة الغفران عند الله إذا استغفر الانسان ، وجاء في مقابل صفة كفر النّعمة عند الإنسان ، صفة الرحمة عند الله .

فتكامل النّصان من جهة ، ودلّت خواتم الآيتين على معانٍ لم تكن نفهمها لولاها .

* * *

القاعدة الثامنة عشرة

((حول النظر في الألفاظ المتقاربة المعنى أو المترادفة))

مهما أمكن إبعاد فكرة الترادف عن الكلمات القرآنية فهو الأحق بأن يكون المنهج لدى تدبر القرآن ، والأقرب إلى الفهم الصحيح ، ولو كانت الكلمات داخلة في معنى كلي واحد ، إلا أنه معنى عام صالح لنسب متفاوتة .

وبإبعاد فكرة الترادف قد يكشف المتدبر لكتاب الله المستويات النسبية للموضوع الواحد ، والدرجات التي يُقصد الإشارة إليها ، وقد يظهر له بعض أغراض تكرير الفكرة في مواضع مختلفة .

فقد يأتي في القرآن اختيار كلمة في موضع ، ثم قد يأتي اختيار مرادف لها في موضع آخر ، أو اختيار كلمة مقاربة لها في المعنى في موضع آخر .

ولما كان القرآن في قمة الإعجاز كان على المتدبر له أن يتفكر في سر اختيار كل من الكلمات المترادفة أو المتقاربة ، ووضعها في الموضع الذي استعملت فيه دون الأخرى . فمن شأن التفكير والبحث أن يهدي بعض المتفكرين الباحثين إلى سر ذلك ، ولو بعد حين من الدهر .

* * *

الأمثلة :

المثال الأول : يقول الله تعالى في سورة (الملك) :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
وَالِيهِ الشُّعُورُ ﴿١٥﴾

ويقول الله تعالى في سورة (الجمعة) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا
الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

هذان نصّان يلاحظ فيهما أنّ التوجيه لطلب الرزق قد استعملت فيه كلمة (فامشوا) • وأنّ التوجيه لحضور صلاة الجمعة بغية مشاركة المسلمين في ذكر الله قد استعملت فيه كلمة (فاسعوا) • والسعي من المشي ، إلا أنّ فيه معنى الهمة والنشاط وزيادة الحركة ، والغرض من ذلك الحركة النفسية والقلبية •

ولدى التدبّر في سرّ اختيار كلٍّ من هاتين الكلمتين المتقاربتين في مواضعهما ظهر لي أنّ الله تبارك وتعالى قد أمر بطلب الرزق عن طريق المشي المعتاد ، لا عن طريق السعي الذي فيه المشي الحثيث بهمة بالغة ، أي أمر بطلب الرزق مع الإجمال في الطلب ، وذلك لأن الرزق مضمون بالمقادير الربّانية من خلال تعاطي الأسباب الكونية ، ضمن حدود ما قسم الله لكل إنسان ، فعلى الانسان أن يتخذ الأسباب برفق ، ليصل عن طريقها إلى ما قسم

الله له من رزق ، والمشي برفق سبب يحقق له المقسوم ، والسعي الحثيث لا يزيده على ما قسم الله له شيئاً ، إنّما يزيده كدّاً وانشغالاً عن خيرات أخرى تنفعه في آخرته • أمّا التوجّه لذكر الله وعبادته فقد أمر الله بطلبه عن طريق السعي ، الذي فيه الهمة النفسية والنشاط والرغبة الشديدة التي تعبّر عنها الحركة النشيطة • وذلك لأنّ ثواب الآخرة يتبع مقدار العمل في الدنيا ، وليس مضموناً ضماناً منفصلاً عن العمل ، ولا مقسوماً قسمة قدريّة لا تزيد ولا تنقص ، بل هو ثمرة تابعة بفضل الله لمقدار ما يكسب الإنسان من أعمال صالحات ، من أجل ذلك كان المناسب في هذا المقام اختيار كلمة السعي ، لأنّ المشي دون همة نفسية وحرص على الطلب يبطئ في العمل ، فيكون من وراء ذلك حرمان من الثواب على مقدار التقصير •

ومن أجل هذا المعنى التزم القرآن كلمة (السعي) ومشتقاتها في الأعمال ذات الثمرات والنتائج الأخروية خيراً كانت أو شراً •

مثل :

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن »

الاسراء ١٩ •

« وأنّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى » النجم ٣٩ •

« يوم يتذكر الإنسان ما سعى » النازعات ٣٥ •

« لتجزى كل نفس بما تسعى » طه ١٥ •

« إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً »

الانسان ٢٢ •

« إنَّ سعيكم لشتىَّ الليل ٤ •

فظهر لنا من هذا البيان أنَّ اختيار كلمة (فامشوا) قد كان للدلالة على معنى مقصود لا تدلُّ عليه كلمة (فاسعوا) • وأنَّ اختيار كلمة (فاسعوا) في الموضع الذي استعملت فيه قد كان للدلالة على معنى مقصود لا تدلُّ عليه كلمة (فامشوا) • وبهذا التدبر انكشفت لنا فقرة من السلسلة الطويلة المشتمة على عناصر لا تكاد تحصر من إعجاز القرآن •

* * *

المثال الثاني : (التقوى - البر - الإحسان) هذه كلمات تدلُّ على مراتب بعضها أعلى من بعض ، وينعدم إدراك هذه المراتب حين يفسَّر مثلاً البر بالتقوى دون بيان المعنى الزائد على مجرد التقوى ، والذي هو التوسع في أعمال الخير فوق الواجبات ، حتى أوائل مرتبة الإحسان ، وحين يفسَّر الإحسان بالبر أو البر بالإحسان ، دون بيان المعنى الزائد في الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه •

* * *

المثال الثالث : مراتب التجاوز عن السيئات ، والتي تعبّر عنها الكلمات التالية : (الغفران - التكفير - العفو - رفع الجناح - تبديل السيئات بالحسنات) •

أمّا (الغفران) فيدلّ على مطلق الستّر لذنب المذنب • ويأتي فوقه (التكفير) الذي يدلّ على معنى الستّر بالدفن ، ويلاحظ أنّ الدفن فيه معنى زيادة إخفاء الأثر • ويأتي فوقه (العفو) ، الذي يدلّ على معنى محو الأثر • ويأتي فوقه (رفع الجناح) الذي يدلّ على اعتبار الذنب كأن لم يكن • ويأتي فوقه (تبديل السيئات بالحسنات) وهذا أعلى المراتب التي يتفضّل الله بها على عباده ، إذ يبدّل الله لبعض أهل المراتب العالية سيئاتهم حسنات •

إذن فلا يصح تفسير بعض هذه الألفاظ ببعض دون تجوز ، إذ هي ليست مترادفات ، إنما هي مراتب بعضها أعلى من بعض ، وبعضها أخصّ من بعض لما فيه من معانٍ زائدة •



القاعدة التاسعة عشرة

« حول تردد النص القرآني بين دالتين أو أكثر »

إذا تردد النص القرآني بين دالتين أو أكثر ، كدلالة أصلية لغوية ، ودلالة عرفية شائعة في العرف العام ، أو دلالة عرفية شائعة في الاستعمالات القرآنية وبيانات الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو دلالة هي من قبيل التوسع في المفهوم ، كالانتقال من الحسيات إلى المعنويات أو المجردات ، ومن المعاني الحادثة إلى المعاني الأزلية ، أو دلالة مجازية مما استعمله العرب .

فالدلالة التي ينبغي المصير إليها واعتمادها في فهم معنى النص ، هي التي تطابق الواقع ، أو تؤيدها البراهين العقلية ، أو التي لا إشكال فيها فلا تحتاج إلى تأويل بخلاف غيرها ، أو التي تنسجم مع سوابق النص ولواحقه ، أو التي تتفق مع المفاهيم القرآنية والأصول الإسلامية الثابتة بيقين .

أمّا إذا تكافأت الدلالات فالدلالة الأصلية اللغوية هي المرجحة ، وتبقى الدلالات الأخرى احتمالات مرجوحة ، حتى يأتي من الأدلة ما يرفع قيمتها إلى التساوي ، أو الرجحان ، أو الاعتماد بصفة جازمة . وعند الحاجة إلى إخراج اللفظ عن أصل دلالته فيُصار إلى أقرب المعاني اللصيقة بالمعنى الأصلي ، وإذا

أمكن أن يكون هذا المعنى ممّا عمت به الدلالة حتى غدا حقيقة
في العرف فهو الأولى والأحق بالفهم •

* * *

الأمثلة :

المثال الأول : (المكر) في قول الله تعالى في سورة (الأنفال) :

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٤﴾

وقول الله تعالى في سورة (النمل) :

وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

وقول الله تعالى في سورة (الأعراف) :

أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا
مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

وقول الله تعالى في سورة (يونس) :

وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ
اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

ونحو ذلك •

بحثنا عن المعنى الأصلي للتَّعْوِي للمكر فوجدنا أنه تدير
أمر في خفاء ، ومعلوم بداهة أن ما يدبر في الخفاء لا يلزم أن
يكون شراً ، بل قد يكون خيراً •

ثم اكتسب المكر في تصوّرات العامة أو في العرف العام
بعد ذلك صورة قبيحة مستهجنة ، تخصيصاً منهم للمكر في تدير
ما هو شر •

وسيطر هذا المعنى الجديد على أفكار بعض المفسرين ،
فوجدوا إشكالا في نسبة المكر إلى الله ، فلجأوا إلى تأويل ذلك
بأنه من باب المشاكلة • ولو أنهم أبعدوا عن تصوّرهم هذا
المفهوم المستحدث ، ورجعوا إلى أصل المعنى اللّغوي ، لظهر لهم
أن (المكر) الذي هو تدير أمر في خفاء قد يكون مكرّاً في
الخير ، وقد يكون مكرّاً في الشر ، وجانب الخير منه لا ينافي
الكمال بل هو من عناصره • إن الحاكم العادل يمكر ومكره
لا يكون إلا في الخير ، إنّه يمكر بالمجرمين حتى تقبض عليهم
يد العدالة ، والمسلم الملتزم باسلامه يمكر ، ومكره يكون في
الخير ومرضاة الله تعالى • والله جلّ وعلا يمكر وهو خير الماكرين •

ولذلك ذمّ الله في القرآن المكر السيئ ، ولم يذمّ مطلق
المكر ، فقال تعالى في سورة (فاطر) [والذين يمكرون السيئات
لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور (١٠)] •

[ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله (٤٣)] •

ولمّا كان الأمر كذلك فقد وجب المصير إلى المعنى الأصلي اللغوي حتماً ، ولا حاجة بنا إلى إخراج اللفظ عن أصل دلالاته اللغوية ، لا سيما وهذا الإخراج يوقعنا في الإشكال ، ويجعلنا في حاجة إلى التأويل إنّه غلط يجر إلى لفظ لا داعي له .



المثال الثاني : (الكيد) في قول الله تعالى في سورة (الطارق) :

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ
رُويْدًا ﴿١٧﴾

وقول الله تعالى في سورة (يوسف) :

كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ ط ﴿١٨﴾

وقول الله تعالى في سورة (القلم) ٤٥ و (الأعراف) ١٨٣ :

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٩﴾

جاء في معنى (الكيد) لغة ماييلي: الكيد: الاحتيال والاجتهاد.
الكيد: التدبير بباطل أو حق . • الكيد: الحرب . وتأتي كاد بمعنى طلب وأراد و غير ذلك من معانٍ . (انظر لسان العرب) .

ونستطيع أن نقول : إنّ هذه المعاني تدور حول اتخاذ أعمال وتدابير توقع الآخرين بما يكرهون . وبأدنى تأمل

يتضح لنا أنّ اتخاذ مثل هذه الأعمال قد يكون في الخير وقد يكون في الشرّ ، وجانب الخير منه لا يكون منافياً للكمال ، بل هو من عناصره •

فإذا شاع في تصورات العامة ، أو في العرف العامّ ، أو كان أحد المعاني اللغوية ، تخصيص الكيد في الصورة القبيحة المستهجنة التي لا تليق بكمال صفات الله جلّ وعلا ، فلا يصحّ أن يسيطر هذا المعنى على تدبّر ما نسب إلى الله في القرآن من (الكيد) ، حتى يلجأ إلى التأويل بالمشاكلة أو غير ذلك ، ما دام باستطاعته أن يجد في المعاني اللغوية الأصول ما لا يتنافى مع كمال صفات الله عز وجل ، بل هو ينطبق على ما نعلم بالنصوص القطعية الأخرى وبالبراهين العقلية من صفات الله تعالى •

وبناء على هذا نقول : إنّ الكافرين يكيدون في الشرّ ، لأنهم يعملون بمكائدهم لإدحاض الحق وإقامة الباطل في الأرض ، أمّا الله تبارك وتعالى فاتّه يكيد في الخير ، لأنّه لا يثّلع عمل المفسدين ، بل يردّ كيد الكافرين إلى نحورهم ، وينصر أوليائه المؤمنين على أعدائه ، ويؤيد أنصار الحق ، ويأبى إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون والمشركون •

ويتهيئ بذلك الأمر دون إشكال ، ولا تأويل ، وتستقيم عملية التدبّر لكلام الله •

* * *

المثال الثالث : صيغة (أَفْعَلْ) التي للتفضيل ، الأصل عدم إخراجها عن بابها إلاّ بدليل مرجّح ، وعلى المتدبّر لكلام الله أن يبحث ويدقق في المعاني رجاء أن يصل — بتوفيق الله — إلى معنى صحيح لا ضرورة معه إلى إخراج الصيغة عن أصل دلالتها ، وقد يكون هو المعنى المراد والله أعلم •

مثل قول الله تعالى في سورة (المائدة) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ؕ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^٥ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾

وقول الله تعالى في سورة (البقرة) :

وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ^٤ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾

فقول الله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » لا داعي لإخراج أفعل التفضيل فيه وهو « أقرب » عن بابها ، وذلك لأننا نستطيع أن نفهم التفضيل بوجه صحيح فنقول :

إنّ اتخاذ سبيل العدل مع أعداء الاسلام والمسلمين أقرب للتقوى من تركه على تصوّر أنّ ترك العدل مع هؤلاء الأعداء

قد يخدم الاسلام والمسلمين أكثر من العدل • وإذْ تردّد الأمر بين احتمالين لكلٍّ منهما وجهة نظر قد يقال فيها : إنّها لا تتنافى مع التقوى ، لكنّ الله يبيّن لنا أنّ العدل — رغم كونه مع أعداء الاسلام والمسلمين الذين هم أعداء الله — هو أقرب لتحقيق تقوى الله ، أو بكمال التقوى في هذا المجال ، لأنّ الله يحبّ ألاّ يظهر من المسلمين إلاّ صفة العدل ، إذْ هم يطبّقون في سلوكهم تعاليم الاسلام ، ويقدمون بذلك صورة عملية عن دينهم ، فهم بهذا التطبيق يثّرون عملياً بدين الله ، والتبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أوليات مطالب الاسلام من المسلمين ، وهو في منهج الدعوة أرجح من التخلّص من الأعداء •

وقول الله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » لا داعي فيه أيضاً لإخراج « أقرب » وهو أفعل تفضيل عن بابه ، وفيما يلي بيان ذلك :

الموضوع يتناول إمتاع المرأة المطلقة قبل الدخول بها ، فإن كان الزوج لم يفرض لها مهراً ، فقد أمر الله الزوج المطلق بامتاعها « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين » وهذا الامتاع هو من قبيل المواساة ، لذلك فهو حق على المحسنين ، أي فهو إلزام بإحسان •

قال ابن عباس : متعة الطلاق : أعلاه الخادم ، ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة (١) .

وقال الشافعي : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة (٢) .

وإن كان الزوج قد فرض لها مهراً معيناً فقد جعل الله المتعة اللازمة نصف المهر المفروض .

ونقول : إن أصل المهر في معناه نحلة ألزم الله بها الزوج ، فهو عطية وهبة واجبة ، لكن الزواج الذي رافقه المهر يفضي إلى انتفاع الزوج بزوجه بما هو غرض النكاح .

فإذا طلق الزوج زوجته قبل أن يدخل بها أي قبل أن ينتفع منها بأي استمتاع ، فالأمر متردد بين حق الزوج الذي لم ينتفع بشيء فليس عليه أن يدفع أي شيء ، وبين حق الزوجة التي آذاها الطلاق ، فمن حقها أن تواسى ، فاشتبه الأمر بين حقيين ، وقد جاء الحل القرآني بالالزام بالامتناع ، أو بنصف المهر إحساناً . فالعمل بهذا من التقوى ، ولكن الأقرب إلى كمال التقوى أن تعفو المطلقة فلا تأخذ شيئاً من المهر المفروض لأن الزوج لم يستمتع بها ، والأقرب إلى كمال التقوى أن يعفو الزوج فيبذل كامل المهر المفروض ولا يطالب بإعادة نصفه إذا كان قد بذله سابقاً ، نظراً إلى أن الزوجة قد تعرضت للأذى بسبب الطلاق الذي

(١) (٢) انظر ابن كثير في تفسيره .

مارسه الزوج فصارت تعتبر بين الناس مطلقة ، والمهر بالأساس فيه معنى النحلة أكثر مما فيه معنى المعاوضة ، لأنّ المنفعة الزوجية متبادلة •

ويخطر لي في قوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » أنّه يتضمّن زيادة حثّ للأزواج على العفو ، لأنّ الله قد فضّل الرجال على النساء ، كما قال تعالى في سورة (النساء) :

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿٢١﴾

ومن فضّله الله أخرى بأن يكون هو السابق إلى العفو ، والنهي عن النسيان هنا أمر بتذكّر هذا الفضل الداعي إلى العفو المطلوب •

والمفسّرون يرون الفضل هنا بمعنى البذل والعطاء العام ، وأرى المناسبة ترجّح ما خطر لي والله أعلم •

* * *

المثال الرابع : يقول الله في شأن المنافقين في سورة (البقرة) :

وَإِذَا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا

نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

فالله تبارك وتعالى قد ذكر في هذا النصّ أنّه يستهزئ بالمنافقين عقوبة لهم على استهزائهم بالمؤمنين ، وأقرب المعاني إلى

المعنى الأصلي للاستهزاء أن نقول : إنَّ الله عزَّ وجل يعاقبهم
بمثل عملهم ، فيضعهم في موقف يكونون فيه محل استهزاء
المؤمنين بهم ، كما كانوا هم يستهزئون بالمؤمنين •

ولما كان هذا العقاب — الذي جعلهم مستهزأً بهم من قبل
المؤمنين — هو من أفعال الله تعالى صحَّ أن يُنسَب الاستهزاء
إليه • كما يقال لمن مكَّن غيره من قتل إنسان : أنَّهُ قاتل • ولمن
هيأ الوسائل لإطعام قوم : إنه قد أطعمهم • ولمن حكم على رجل
بالسجن : إنه قد سجنه ، مع أن الذي باشر أخذه إلى السجن
ودسَّه فيه هم العسكر وليس الذي حكم عليه بالسجن •

ومثل هذا شائع في عرف الاستعمال شيوعاً عظيماً ، حتى
لا يبعد أن يقال : إنَّ دلالة اللفظ عليه من الحقائق العرفية
لا من المجاز •

* * *

المثال الخامس : يتسرَّع البعض فيقول : الظنَّ الوارد
في آيات قرآنية كثيرة هو بمعنى اليقين ، والسبب في ذلك أنَّ
ظاهر بعض الآيات القرآنية قد يُفهم من كلمة الظنَّ الواردة فيها
معنى اليقين •

ولدى التسبُّع لكلِّ الآيات التي جاءت فيها كلمة (الظنَّ)
ومشتقاتها تبين لي أنَّ الأصل في الظنَّ الوارد في القرآن هو

ما دون اليقين تنازلاً حتى درجة الوهم الذي لا يصحّ الاعتماد عليه بحال من الأحوال • مثل :

١ - « حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأنّ لم تغنّ بالأمس » يونس ٢٤ •

فهذا الظن من قبيل الظنّ الضعيف المستند إلى وهم خاطئ •

٢ - « وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك » يوسف ٤٢ •

وهذا الظن من يوسف عليه السلام قد صدقة الواقع ، فتبين أنّه ظنّ صحيح ، إلاّ أنّه لم يكن في نفسه يقيناً ، إذ كان من قبيل تعبيره لحلم رآه أحد رفيقيه في السجن ، ومثل هذا لا يفيد يقيناً حتى يتحقّق في الواقع •

٣ - « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أنّ لن نقدر عليه » الأنبياء ٨٧ •

أنّ لن نقدر عليه : أي لن نضيّق عليه •

وقد كان ظنّ يونس هذا خاطئاً ، فقد عرّضه للسجن في فم الحوت •

٤ - « وظنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً وأُتاب » ص ٢٤ •

إِنَّ ما جرى لداود عليه السلام جعله يظنّ ظناً راجحاً أنّ الله يمتحنه في الخصمين اللذين تسورا عليه المحراب ، ولم يبلغ ظنّه مستوى اليقين ، لكنّه كان ظناً قوياً صحيحاً مطابقاً للواقع .

٥ - « فأما من أوتي كتابه يمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه (١٩) إني ظننت أنّي ملاقٌ حسابه (٢٠) » الحاقة .

في هذا النصّ يمكن بالتأمل أن لا نخرج الظنّ عن أصل معناه وهو ما دون اليقين ، وذلك بأن نقول :

إِنَّ المؤمن قد يقع في احتماله أن يدخله الله الجنّة بغير حساب ، ولكن مع ذلك يبقى لديه ظنّ راجح قوي بأنّه سيلاقي حسابه . ونقل النصّ إلى مطلق الايمان باليوم الآخر خروج به عن أصل دلالاته ، وهذا قد أفضى إلى إخراج الظنّ فيه عن أصل دلالاته أيضاً ، وجعله من باب اليقين عند من فسّره بمعنى اليقين .

٦ - « ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » فصلت ٢٢ .

« وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم » فصلت ٢٣ .

« إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » الأنعام ٢٣ .

« وما لهم به من علم إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنّ وَإِنْ الظن لا يغني من الحق شيئاً » النجم ٢٨ .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » الحجرات ١٢ •

فالظنّ المتحدّث عنه في هذه الآيات من الظنون المردودة التي لا يجوز الاعتماد عليها •

وتكثر النصوص التي فيها الظنّ بمعنى الظنّ الوهمي المرفوض ، وفيها ما هو بمعنى الظنّ الراجح المقبول ، كما سبق في بعض الأمثلة •

وقد جاء (الظنّ) ومشتقات هذا اللفظ في القرآن (٦٩) مرة ، كلّها ما بين الظنّ الوهمي المردود وصعوداً حتى الظنّ القوي الراجح ، الذي لم يصل في نفس صاحبه إلى مستوى اليقين ، وإن صدّقه الواقع بعد ذلك ، وإن طابق الحقّ بالأدلة البرهانية عند غير صاحب الظنّ ، باستثناء بعض آيات قد يشكّل فيها إبقاء الظنّ على أصل معناه ، وقد يحتاج الأمر إلى تدبّر عميق وتحليل دقيق •

وهي بالإضافة إلى الآيات التي سبق توجيهها توجيهاً لا يخرجها عن أصل معنى الظنّ ما يلي :

١ — قول الجن الذين استمعوا القرآن من الرسول ﷺ وآمنوا به : « وأتّا ظننّا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » الجن ١٢ •

وأرى أن مقالتهم هذه تعبّر عمّا كانت عليه حالتهم قبل أن يؤمنوا بالرسول وبالقرآن ، فهو ظنّ على أصل معناه ، ولا داعي لجعله بمعنى اليقين •

٢ - في شأن الثلاثة المؤمنين الذين خلّفوا عن غزوة تبوك يقول الله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه • ثم تابّ عليهم ليتوبوا • إنّ الله هو التواب الرحيم » التوبة ١١٨ •

وفي هذه الآية لا أجد ما يقتضي حمل الظن فيها على معنى اليقين ، وذلك إذا فهمنا أنّ الظنّ فيها مسلّط على ما دعاهم لطلب الملجأ ، وهو ظنّهم أنّ الله قد قضى عليهم بالعقاب جزاء تخلّفهم ، وإذا قضى عليهم بالعقاب فلا ملجأ من الله إلاّ إليه ، وهذا يقين إيماني ثابت لديهم •

أي وظنّوا أنّ الله معاقبهم على تخلّفهم ، وهذا منهم من قبيل الظنّ فعلاً ، لاحتمال أن يتوب الله عليهم ، لذلك غدا ماثلاً في تصورهم أنه لا ملجأ من الله إلاّ إليه ، وهذا من قواعد إيمانهم الراسخة ، صار حاضراً في تصوّرهم ، إذ استدعاه خوفهم من الله •

٣ - « ورأى المجرمون النار فظنّوا أنّهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً » الكهف ٥٣ •

الظاهر من هذه الآية أن المجرمين يوم القيامة لا ينقطع أملهم برحمة الله ، ولو رأوا النار التي هي دار عذابهم فعلاً ، لذلك فهم يظنّون أنّهم مواقعوها ، مع رجاء ضعيف بأن تشملهم رحمة الله •

وظير هذا ما جاء في قول الله تعالى : « ووجوه يومئذٍ
باسرة (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥) » القيامة •

فاقرة : أي كاسرة ظهر •

٤ - « فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً (١٠١)
قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض
بصائر • وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً (١٠٢) » الإسراء •

أما ظن فرعون : فهو ظن باطل يكذبه واقع موسى
عليه السلام •

وأما ظن موسى : فالظاهر هنا أنه لم يكن قد وصل بعد
إلى مستوى اليقين ، فقد بقي لديه رجاء أن يستجيب فرعون
لدعوته ، وإن غدا هذا الرجاء ضعيفاً جداً ، فالأمارات والدلائل
وسوابق الآيات المنزلات التي شهدها فرعون دون أن تلين قلبه
للايمان ، قد جعلت موسى يظن أن فرعون هالك بطغيانه وكفره ،
فقال له : « وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً » •

٥ - « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم
عظيم ؟ (٥) » المطففين •

أي فالأدلة التي تقدم لهم ظناً قوياً كافية لأن تجعلهم
يخافون هذا اليوم العظيم الذي يحاسبون فيه على كفرهم
وسوء أعمالهم •

٦ - وتشكل آيتان فقط وهما قول الله تعالى في سورة
(البقرة) :

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَثِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاشِقِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١١﴾

وقول الله تعالى فيها أيضاً :

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٩﴾

فالظنّ الوارد في هاتين الآيتين ، إما أن نحمله على معنى
اليقين ، كما قال المفسرون ، ونريح أنفسنا من عناء التعمّق •

وإما أن نقول : إن من أفراد هؤلاء المؤمنين الذين يقبل
الله إيمانهم وينجيهم فريق لم يصل لديه دليل الايمان بملاقاة ربّه
لحساب والجزاء إلى مستوى اليقين الكامل ، ومع ذلك فهو
يؤمن بالغيب ويسلم تسليمًا كاملاً مستنداً إلى دليل أفاده الظنّ
الراجح القوي الكافي للاعتقاد والايمان ، ولو لم يصل إلى درجة
اليقين الذي لا يخالطه من جهة الاستدلال احتمال مهما كان
ضعيفاً ، والله أعلم •

* * *

المثال السادس : التوسع في دلالات الألفاظ ظاهرة مستفيضة في القرآن الكريم ، كالاتقال من الحسيّات إلى المعنويات أو المجرّدات ، ومن المعاني الحادثة إلى المعاني الأزلية .

● فالباب وجمعه الأبواب : أصله في الحسيّات معروف ، وتوسّع القرآن في معناه من الحسيّات إلى المعنويات ، فمن ذلك : « فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » الأنعام ٤٤ .

« ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر » القمر ١١ .
« حتّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون » المؤمنون ٧٧ .

● الجبل : أصله في الحسيّات معروف ، واستعمل للدلالة على القرآن ، والأمور المعنوية الواصلة بين جهتين .

● والإيلاج : أصله في الحسيّات إدخال شيء في شيء ، واستعمل بتوسع في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل .

● والإيزال : أصله في الحسيّات إيزال شيء من أعلى إلى أسفل ، واستعمل بتوسع في الإيزال المعنوي ، ومنه إيزال الحديد ، وإيزال الآيات التي منها قلب العصا حية تسعى .

● والختم : أصله في الحسيّات ، ومنه ختم الكتاب بالطين

لتأمين إيصاله دون فضّ ، واستعمل بتوسع في الختم المعنوي ،
ومنه الختم على القلوب •

● والموت والحياة : في الحسيّات أمران معروفان، واستعملتا
بتوسع في المعنويات ، فاستعمل الموت بمعنى موت القلوب بالكفر،
واستعملت الحياة بمعنى حياة القلوب بالايان والعمل الصالح •

● كلمة فوق : أصلها في الحسيّات علو شيء على شيء ،
واستعملت في العلو المعنوي ، ومنه « وجاعل الذين اتبعوك فوق
الذين كفروا » آل عمران ٥٥ •

● التضرع : أصله في الحسيّات خفض ولد الدابة رأسه
إلى ضرعها ليرضع منه ، واستعمل بتوسع للدلالة على معنى التذلل
والخضوع •

● الظلمات والنور : في الحسيّات معروفة ، واستعملت
بتوسع للدلالة على الضلالة والهدى •

● العمى والبصر : في الحسيّات معروفان ، واستعملتا
بتوسع للدلالة على الكفر والايان •

● الأكل : هو المضغ بالأسنان والبلع ، واستعمل بتوسع
للدلالة على أخذ الأموال ، وإنكار الحقوق •

● الصراط ، الطريق ، السبيل : في الحسيّات معروفة ،

واستعملت بتوسع في المعنويات ، حتى كانت في المعنويات
هي الأغلب •

● وغير ذلك كثير •

* * *

المثال السابع : استخدم القرآن ألفاظاً عربية ، وجعل لها
مصطلحات شرعية، ذات دلالات خاصة تعرف من نصوص الشريعة •

مثل : الصلاة - الزكاة - الحج - الصوم - الجهاد -
التوبة - الإنابة - الإخلاص - النفاق - الوضوء -
الغسل - الجنابة ... إلى غير ذلك من ألفاظ كثيرة •

* * *

القاعدة العشرون

« حول مراعاة ظاهرة التضمين »

من ظواهر هذا الإيجاز في التعبير القرآني ظاهرة التضمين ، وهو أن تذكر كلمة ذات معنى ، وتضمّن مع معناها معنى كلمة أخرى ، ثمّ يبنى عليها كلام على أساس معنى الكلمة الأخرى التي تضمّنتها ، كالتعديّة بالحروف المناسبة لمعنى الكلمة المتضمّنة .

وقد اعتمد الزمخشري في الكشف على قاعدة التضمين لدى تفسير نصوص ظهر له فيها تعديّة فعل أو شبهه بحرف فعل آخر .

من ذلك قول الله تعالى في سورة (التوبة) :

يَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَبِيزَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَبِيزَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾

أي تشاقلتم مائلين أو مخلصين إلى الأرض ، فتعدّت كلمة تشاقلتم هذه التعديّة (إلى الأرض) ملاحظة للمعنى الذي تضمّنته ، وهو الميل والإخلاق إلى الأرض .

ولنا أن نقول : إنَّ مثل هذا جارٍ على طريقة الحذف القرآني، وهو كثير ما وُجدت دلالة تدلُّ عليه •

فحيث وُجدت تعدية لا تلائم الفعل السابق لها فهي دلالة على محذوف يستدعي هذه التعدية • وهذا المحذوف قد أُلقي معناه على النصِّ المذكور تضميناً على رأي أصحاب فكرة التضمين، أو يقدَّر على أنه محذوف دلَّت عليه التعدية •

ومن أمثلة ذلك ما يلي :

يقول الله تعالى في سورة (الأعراف) :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَا يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١١٧﴾

ظاهر المعنى يقتضي أن يقال : « ما منعك أن تسجد إذ أمرتك » كما جاء في سورة (ص) :

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ

مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

وسورة (ص) نزلت قبل (الأعراف) وكتاهما مكتتان •

ونقول في توجيه قوله تعالى : « ما منعك ألا تسجد » إنَّ

فعلٌ منع تَضَمَّنَ معنى فعل (حمل) فعَدِّي تعديته على رأي أصحاب فكرة التضمين ، فالمعنى : ما منعك عن السجود حاملاً لك على ألاّ تسجد .

أو نقول : إنَّ الآية فيها محذوفان دلَّ عليهما مذكوران ، أما المحذوف الأول فهو معمول الفعل المذكور ، وأما المحذوف الثاني فهو فعل المعمول المذكور ، والتقدير : ما منعك أن تسجد فحملك على ألاّ تسجد . ونظراً إلى أن آية (ص) قد جاءت على الأصل دون حذف ، كان مبدأ تكامل النصوص يستدعي أن تأتي آية (الأعراف) وفيها ما يدل على المعنى الذي يدلّ عليه : ما حملك على ألاّ تسجد ؛ لأنّ مقاضاة إبليس تستدعي سؤاله عن أمرين :

الأول : عن المانع له عن طاعة الأمر .

الثاني : عن الدافع له على المعصية .

فسئل عن المانع وعن الدافع ، ومن الجواب تبين أن كبر إبليس بعنصريته القائمة على وهم فضل الأصل الناري على الأصل الطيني ، قد كان هو المانع عن الطاعة ، وهو الدافع إلى المعصية ، والحامل عليها .

* * *

القاعدة الحادية والعشرون

« حول النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه »

على متدبّر كلام الله أن يمعن النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه ، فلكل هدف من أهداف الكلام أساليب تلائمه وتناسبه ، بينما لا تلائمه أساليب أخرى قد تكون صالحة لتحقيق هدف غيره .

وقد يوحى الأسلوب القرآني لمتدبّره الحصيف بالتصورات الصحيحة لكلّ هذه الأمور ، فالثوب المفصّل تفصيلاً محكماً يدل على هيكل الجسم المفصّل له ، كما أنّ المعرفة السابقة للجسم تلفت النظر إلى إحكام التفصيل وإتقانه .

* * *

إنّ النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه ، يوضح كثيراً من دلالات النصّ ، إذ لكلّ هدف من أهداف الكلام أساليب تلائمه وتناسبه ، بينما لا تلائمه أساليب أخرى قد تكون صالحة لتحقيق هدف غيره .

إنّ من الأساليب الكلامية ما يصلح في مواقف الخطابة المحرّكة للمواطن ، ومنها ما يحلو في مواطن الحماسة ، ومنها

ما ينفع ويؤثر في مجالات الاقناع الهادىء ، ومنها ما ينبغي الالتزام به لتحديد موادّ قانونية وبيان أحكام تشريعية ، ومنها ما يكون أنفع وأجدى في ميادين الجدل والمناقشة ، وبعضها يحسن في المديح ، وبعضها يحسن في الهجاء ، وبعضها يلائم بثّ الوجد ، وبعضها يلائم استجداء الرّفد ، وهكذا إلى أهداف كثيرة يصعب إحصاؤها ، في حين أن ما يصلح لبعض هذه الأهداف قد لا يصلح لبعضها الآخر •

والبلغ الأديب الحصيف يحسّ بوجوه التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه ، فيتحرّى أفضل الأساليب ملائمة للهدف الذي يقصده من كلامه ، ولا غرو أن بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملائمة وأعظم تأثيراً من بعض • ولما كان القرآن الذروة القصوى لكلّ كلام بليغ كان لا بد أن يكون أسلوبه البياني ملائماً لما يلي :

أ — ملائماً للهدف العام من الكلام ، فلكلّ هدف من أهداف الكلام أسلوب من القول يلائمه •

ب — وملائماً للوضع العام للمخاطب ، فالناس أصناف بحسب اختلاف أوضاعهم ، فمن أصنافهم عامّة وخاصة ، وجاهلون وعلماء ، وأغبياء وأذكياء ، ودهماء وأمراء ، وبُدادة جفاة ومتحضّرون ، وأهل حلم وعقل ، وأهل خفة وطيش ، وصغار لاخبرة عندهم ، وكبار مضرسون محنّكون ، ومنهم العقلانيون

ومنهم العاطفيّون ، ومنهم من يصلح معه الترغيب ، ومنهم من لا يصلح معه إلا التهريب • ولكل صنف من أصناف الناس أساليب من القول تلائم وتكون أكثر تأثيراً فيه من أساليب أخرى •

ج - وملائماً للحال الخاص للمخاطب ، فنظير اختلاف أصناف الناس اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية ، فما يلائم الإنسان وهو هادئ الفكر قد لا يلائم وهو مشوش الفكر مضطرب ، وما يلائم وهو في حالة الرضا قد لا يلائم وهو في حالة الغضب ، وما يلائم وهو في ضعة وذلّ ، قد لا يلائم وهو في رفعة وعزّ ، وما يلائم وهو في حالة فقر قد لا يلائم وهو في حالة سعة من المال ، وما يصلح له من الخطاب وهو وحده ، قد لا يصلح له وهو بين الناس •

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال ، ولكلّ حال أساليب من القول مناسبة ، وبعضها أكثر مناسبة وأعظم تأثيراً من بعض •

ما المراد من الأسلوب البياني ؟

إننا قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانية وإن حاولنا ذلك ، لكننا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلامية التي إذا كانت ملائمة للهدف العام من القول والوضع العام للمخاطب والحال الخاص له كانت أسلوباً بيانياً مرتقياً في معارج البلاغة الرفيعة •

فمن الأساليب الكلامية ما يلي :

أ - أسلوب العرض المباشر الصريح للفكرة المراد الإعلام بها .

ب - أسلوب العرض غير المباشر ، الذي يُعتمد فيه على مقدار ذكاء المخاطب ، ويدخل في أسلوب العرض غير المباشر التعريض ، والتلميح ، والإشارة الخفية ، ولهذا الأسلوب صور كثيرة .

ج - أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسطة موضحة من كل جوانبها ، ولهذا الأسلوب مراتب وصور كثيرة ، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من الناس ، وأهدافاً خاصة من الكلام ، وأحوالاً خاصة للمخاطبين .

د - أسلوب الإيجاز والاختصار ، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصور كثيرة . وأسلوب الإيجاز والاختصار يناسب أصنافاً من الناس ، كالأذكياء ، وكالأمرء ، وأهدافاً خاصة من الكلام ، وأحوالاً خاصة للمخاطبين .

هـ - أسلوب الترغيب ، وله مراتب وصور كثيرة ، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الانسانية ، لما خلق الله فيها من مطامع .

و - أسلوب التهيب ، وله أيضاً مراتب وصور كثيرة ، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النفوس الانسانية لما خلق الله فيها من حذر وخوف .

ز - أسلوب العنف والقسوة ، وهو يلائم بعض الناس وفي بعض الأحوال .

ح — أسلوب الرقة واللين ، وهو في أكثر الأحوال أسلوب نافع يعطي ثمرات طيبات •

ط — أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات ، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة ، ومواقف التشجيع على الإقدام والبسالة •

ي — أسلوب الاقتناع الفكري الهادئ ، وهذا الأسلوب هو الأسلوب النافع في تأسيس العقائد ، والمفاهيم الاجتماعية ، والأسس الأخلاقية ، ومبادئ المعرفة ، ومسائل العلوم •

ك — أسلوب الجدل المنطقي الملتزم بمنهج الحق وآداب المناظرة ، وهذا الأسلوب هو الأسلوب الذي يجدي مع بعض المخالفين في الرأي ، الذين لهم مهارات جدلية •

وهكذا تختلف أساليب القول ، وكل منها يناسب أهدافاً خاصة من الكلام ، وأصنافاً خاصة من الناس ، وأحوالاً خاصة للمخاطبين ، وقد يجتمع عدد من هذه الأساليب في كلام واحد حينما لا تكون متنافية •

فعلى متدبر كتاب الله أن يضع في حسابه اعتبار موضوع الملاءمة بين الأسلوب الكلامي وبين الهدف العام من القول ، والوضع العام للمخاطب به ، وحالته الخاصة ، ليكون تدبره أكثر سداداً ، وأصحّ فهماً ، وأكثر صواباً ، وبه يستبين روائع بيانية عظيمة ، كثيراً ما تكون خفية عن الباحثين في تدبر القرآن العظيم •

* * *

القاعدة الثانية والعشرون

« حول البحث عن الوجوه البلاغية والغرض الفكري من
الصور البلاغية في القرآن »

على متدبر كتاب الله أن يبحث عن الوجوه البلاغية التي
اشتمل عليها أي نص من نصوصه ، وأن يمعن النظر لاستجلاء
الغرض الفكري من الصورة البلاغية التي يكتشفها ، فليس المهم
الإشارة إلى الصورة البلاغية البديعة فقط ، بل ينبغي أيضاً
استجلاء الغرض الفكري من استخدامها مع غرض الإبداع
البلاغي ، والاعجاز البياني .



إن البحث عن الوجوه البلاغية التي اشتمل عليها أي نص
قرآني يتيح للدارس أوسع مجال تطبيقي للقواعد البلاغية ،
ويهيئ له فرصة نفيسة لتمكين قواعد علوم المعاني والبيان والبدیع
في نفسه ، حتى تصبح قواعد هذه العلوم وروائع أخرى لم تلاحظها
هذه القواعد ، بالمران التطبيقي ايجابية مؤثرة ، تظهر ثمراتها
البديعة فيما ينتج من أدب ثري أو شعري .

ومن شأن دراسة النصوص البليغة ، ذات البيان الرفيع ، أن
تمنح دارسها ببصر وإمعان ملكة الذوق البياني الرفيع ، والإحساس

بمواطن الجمال الفني ، والقدرة على النقد الصحيح ، ثم القدرة على المحاكاة ، فالإبداع ، وفق الخصائص الإبداعية الفطرية التي لديه .

ولدى بحث أي جانب بلاغي لا بدّ من استجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغية ، فهذا أمر مهمّ جدّاً .

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة (الرعد) :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيٌّ بِقَدَرِهَا ﴿١٧﴾

إنّ الصورة البلاغية في هذا النصّ هي الإسناد المجازي ، إذ أسند السيّلان إلى الوادي ، مع أنّ المراد سيّلان الماء فيه .

والغرض الفكري من هذا المجاز هو إعطاء السامع صورة تشعر على سبيل التخيّل بأنّ الوادي فعلاً يسير ، وهذه الصورة قد تحدث في وهم الإنسان أو في تخیلاته حينما يشاهد فعلاً هدير الماء الكثير المتدفق الذي يملأ الوادي .

* * *

القاعدة الثالثة والعشرون

« حول ضرورة ملاحظة قواعد اللغة العربية »

على دارس أي نصّ قرآني أن يكون على علم كافٍ بقواعد اللغة العربية نحوها وصرفها ، لأنّ فهم معاني النصوص لا يتمّ على وجه صحيح دون العلم الكافي بهذه القواعد .

* * *

بين معنى النص وقواعد اللّغة العربية نحوها وصرفها ارتباط يمثلّ ركناً أساسيّاً من بناء الكلام العربي ، فالجملة العربية بناء كلاميّ يعتمد على أركان :

الركن الأول : مادّة الكلمة وما تدلّ عليه من معنى ، بحسب الاستعمال العربي لها ، ومرجع هذا معاجم اللّغة ، واستعمالات العرب في ثرهم وشعرهم .

الركن الثاني : صيغة الكلمة وما تدلّ عليه الصيغة من دلالات خاصة زائدة على المعنى العامّ الذي تدلّ عليه مادّة الكلمة ، والدلالات الخاصة التي تدلّ عليها صيغ الكلام العربي قد استفيدت من الاستعمال العربي الغالب ، الذي دلّ عليه

الإحصاء ، والمرجع لمعرفة دلالات الصيغ علم الصرف وبعض
قواعد علم النحو •

فعلى دارس أي نص عربي بليغ لا سيما كتاب الله عز وجل أن
يكون خبيراً بدلالات الصيغ المختلفة لمادّة الكلمة العربية ، لأن
الفهم الصحيح للنصّ مرتبط بمعرفة ذلك •

١ - فصيغة (عالم) مثلاً من مادّة الكلمة العربية (علم)
غير صيغة (عليهم) وغير صيغة (علام) وإنّ اتحدت كلّها في
أنها وصف يثبت أن الموصوف بها ذو علم ، فصيغة (عليهم) تدلّ
على الاتّصاف بالعلم الكثير ، وكذلك صيغة (علام) •

٢ - وصيغة (قاتل) مثلاً من مادّة كلمة (القتل) غير
صيغة (قتل) فصيغة (قاتل) تدلّ على المشاركة للعدوّ في فعل
التقاتل ، أو تدلّ على شدّة البأس من طرف واحد ، وهو الأمر
الذي يستدعيه التقاتل في العادة بخلاف صيغة (قتل) فإنّها لا تدلّ
على معنى المشاركة في هذا الفعل •

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة •

الركن الثالث : تركيب الكلام العربي القائم على التقديم
والتأخير ، ففضلاً عن أنّ قواعد الكلام العربي تقضي بوجوب
مراعاة شروط التقديم والتأخير بين بعض عناصر الجملة العربية ،
كوجوب تقديم الفعل على الفاعل ، فإنّ كثيراً من دلالات الجملة
العربية تستفاد من تقديم بعض عناصرها أو تأخيرها •

فمن أمثلة ذلك تقديم المعمول على عامله ، إذا كان جائزاً في الاستعمال العربي ، فإنه يفيد التخصيص أو الحصر أو الإشعار بالاهتمام ، أو غير ذلك مما يدل عليه التقديم .

فعلى دارس أي نص عربي بليغ لا سيما كتاب الله أن يكون خبيراً بالدلالات التي يدل عليها التقديم أو التأخير بين عناصر الجملة العربية ، حتى يحسن فهم النص وتدبر مستواه البياني .

الركن الرابع : الاعراب القائم على تغيير الحركات أو ما ينوب منابها في أواخر الكلمة العربية ، وهذا - كما هو معروف - عرضة للتغيير وفق موقع الكلمة في دلالة الجملة العربية .

فاذا كان موقع الكلمة مثلاً يقضي بأن من دلت عليه هو فاعل الفعل ، واستوفت الشروط اللازمة للفاعل ، وجب أن تكون مرفوعة الحرف الأخير منها . وإذا كان موقعها يقضي بأن من دلت عليه قد وقع عليه فعل الفاعل ، واستوفت الشروط اللازمة للمفعول به وجب أن تكون منصوبة الحرف الأخير . وهكذا إلى سائر الاحتمالات التي يمكن أن تتعرض لها الكلمات العربية ، فاذا جاءت الكلمة في النص مرفوعة دلت على معنى مخالف للمعنى الذي تدل عليه فيما لو جاءت منصوبة أو مخفوضة ، وهكذا إلى سائر الوجوه المختلفة .

وبدهي أن تختلف دلالات الجملة العربية باختلاف إعراب الكلمات فيها .

والمرجع لمعرفة قواعد إعراب الكلمة العربية إنما هو علم النحو .

فعلى دارس أي نص عربي أن يكون خبيراً عالمًا بقواعد علم النحو ، لأنّ فهم النصّ بشكل صحيح كامل مرتبط ارتباطاً كلياً بمعرفة موضع كل كلمة في الجملة العربية ، ومعرفة إعرابها ، وهذا لا يتيسّر إلاّ لمن عنده زاد طيّب من هذا العلم ، وإلاّ وقع في أخطاءٍ فكريّة فاحشة ، وهو يشرح معنى النصّ .

* * *

القاعدة الرابعة والعشرون

((حول النص واقتضاءاته))

من المعاني ما يدلّ عليها النصّ دلالة مباشرة منصوفاً عليها في اللفظ ، ومنها معانٍ تستفاد لزوماً ، ويقتضيها النصّ اقتضاءً دون أن يكون فيه ألفاظٌ خاصة تدلّ عليها •

وكثيراً ما يطوي البلاء في كلامهم معاني يريدون الإعلام بها ، دون أن يكون في النصّ ألفاظ صريحة تدلّ عليها دلالة واضحة •

فعلى دارس أي نصٍّ بليغ أن يعمل ذكاءه ويمعن النظر في استنباط المضامين الفكرية التي تستفاد من النصّ عن طريق اللزوم الفكري ، أو الإشارات الضمنية للكلام ، بما فيها من تلويح أو تلميح أو تعريض أو كناية أو غير ذلك •

ومن المستحسن لدى شرحه للنصّ أن يبرز هذه المضامين ، ويدلّ على المواطن الكلامية التي استفاد هذه المضامين منها ، وهذه عملية من عمليات الاستنباط الذي اختصّ الله به المتدبرين من أهل العلم ، قال الله تعالى في سورة (النساء) :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾
وَاِذَا جَاءَهُمْ اَمْرٌ مِّنَ الْاَمْنِ اَوْ اَلْخَوْفِ اذْعَاوْا بِهٖ ۚ وَلَوْ رَدُّوهُ اِلَى الرَّسُولِ وَاِلَى
اَوَّلِي الْاَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُوْنَهُ مِنْهُمْ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَا تَبَعْتُمُ الشَّيْطٰنَ اِلَّا قَلِيْلًا ﴿٨٣﴾

ومما يقتضيه النص سؤال ذكر جوابه دون أن يذكر ،
وجواب ذكر سؤاله دون أن يذكر ، واعتراض " رد النص عليه
دون أن يذكر في اللفظ ، لكنه ملاحظ " ذهنياً ، وتتمات يستدعيها
اللزوم العقلي وقد سكت النص عنها ، ومحدوفات دل عليها
التناظر والتوازن والتكامل أو دل عليها حرف كالفاء الفصيحة
في نحو قوله تعالى في سورة (الأعراف) :

وَاَوْحَيْنَاۤ اِلَى مُوسٰٓى اِذَا اسْتَسْقَمَ قَوْمُهٗۙ اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَۙ فَانْبَجَسَتْ
مِنْهُۙ اَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍۭ مَّشْرِبُهُمْ ﴿١١٦﴾

أي فضرب موسى بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا
عشرة عيناً •

انبجست : أي انفجرت •

أو دلّت عليها تعدية فعلٍ أو شبهه على خلاف التعدية
المعروفة في أساليب العرب ، مثل قوله تعالى في سورة (الأعراف) :

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا

خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾

أي ما منعك عن السجود وحملك على ألا تسجد ؟

ومما يقتضيه النصّ جدليات مطويات جاءت الإشارة
الخفيفة إليها ، مثل الجدليات التي أشار إليها قول الله تعالى في
سورة (الرعد) :

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيقَهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

ففي هذه الآية يعلم الله نبيه محمداً كيف يجادل المشركين
ليردّهم بالبرهان القاطع إلى توحيد الألوهية • ولكن النصّ في
الألفاظ المذكورة لم يشتمل إلا على المفاتيح الفكرية لهذه المناظرة ،
وقد طوى فيه أشياء كثيرة تقتضيها المناظرة ، وهذه الأشياء
يستطيع الرسول ﷺ إدراكها دون أن يصرّح له بها ، كما
يستطيع ذلك العلماء الذين آتاهم الله القدرة على الاستنباط •
(انظر في شرح هذه الآية ما كتبت حول تفسير سورة الرعد)

* * *

القاعدة الخامسة والعشرون

« حول كون النصّ محكماً أو منسوخاً »

الأصل اعتبار النصّ محكماً غير منسوخ ، ولا يُلجأ إلى النسخ إلاّ عند تعذّر حمله على أنه محكم ، أو عند ثبوت النسخ بدليل صحيح .

* * *

يكثر عند بعض المفسرين ادّعاء النسخ في كثير من الآيات القرآنية دون دليل كافٍ يثبت به النسخ .

والأصل أنّ الآيات القرآنية محكمة الدلالة ، ولا يجوز اللجوء إلى الحكم بالنسخ لأدنى شبهة ، أو لدليل ضعيف لا يقوى على رفع دلالة النصّ الثابتة .

وما أمكن تأويل النصّ تأويلاً صحيحاً سليماً منسجماً مع السياق ، وغير معارض لأمر ثابت في بيان دلالاته ، فلا يصحّ فهمه بطريقة تلجئ إلى اعتباره منسوخاً .

وليس من النسخ التدرّج في إنزال الأحكام ، إذ الأمر المسكوت عنه في البيان لا يعتبر بيان حكمه بعد ذلك نسخاً له .

فمن تقدّ من الخطّة الموضوعة بعض عناصرها التي تسمح
به الظروف أو تقتضيه الحكمة ، فأنّه لا يكون مبدلاً ولا مغيّراً
في أصل الخطّة ، وقد تكون الخطّة في أساسها تقضي بأن يجري
تنفيذ عناصرها على مراحل .

على أنّ النسخ في أساسه — كما ذكر علماء الفقه الاسلامي —
إنما هو بيان انتهاء المدّة المقرّرة للحكم السابق . ولكنّ هذه
المدّة لم تكن معلنة عند إنزال الحكم السابق، وإتّما كانت ملاحظة
ضمن الخطّة غير المعلنة .

* * *

القاعدة السادسة والعشرون

« حول النظر في توجيه الخطاب »

على متدبرّ كلام الله أن ينظر في توجيه الخطاب ، فإذا كان خطاباً للناس لوحظ فيه معنى يعم الناس جميعاً ، ولا يخصّ المؤمنين وحدهم . وإذا كان خطاباً للمؤمنين لوحظ فيه معنى يخصّ المؤمنين وما يكلفونه من عمل واعتقاد وغير ذلك . وإذا كان خطاباً لأهل الكتاب لوحظ فيه معنى يخصّ أهل الكتاب . وإذا كان خطاباً للرسول لوحظ فيه معنى خاص بالرسول وقد يشمل المؤمنين ، وهكذا .

* * *

الأمثلة :

أولاً : لدى تتبع النصوص القرآنية المصدرة بخطاب الناس :
« يا أيها الناس » نلاحظ أن مضمون هذه النصوص يشتمل على معنى يعمّ الناس جميعاً .

أ — فأول خطاب مكّي تضمّن نداء الناس جميعاً بـ « يا أيها الناس » هو ما جاء في سورة (الأعراف) :

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

وظاهر في هذا النص أن مضمونه يعمّ الناس جميعاً ، لأنّه
دعوة إلى الايمان بالقضية الأولى من قضايا دعوة الرسول محمد
ﷺ ، وهي الايمان به رسولاً من عند الله الذي لا إله إلا هو .
وهذه الدعوة تشمل من كان على إيمان صحيح قبل بعثته .

* * *

ب - ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (فاطر) بنداات
ثلاثة :

النداء الأول هو قول الله تعالى :

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ ۖ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَإِنِّي تُوفِّكُونَ ﴿١٥٩﴾

ومضمون هذا النداء يعمّ الناس جميعاً ، فهو تذكير بنعمة
الله ، وتذكير بأنه هو وحده الخالق الرازق ، إذن فلا إله إلا هو .
بعد هذا صحّ التساؤل الذي فيه معنى التلويم « فأتى

تَوْفَكُونُ» أي فكيف تصرفون عن توحيده ؟ وكيف تجعلون معه شركاء ؟ •

النداء الثاني هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٠﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

ومضمون هذا النداء يعمّ الناس جميعاً أيضاً ، ففيه دعوة إلى الايمان بالجزاء يوم الدين ، وتحذير من وساوس الشيطان •

النداء الثالث هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٤﴾

ومضمون هذا النداء أيضاً يعمّ الناس جميعاً ، فهو يذكر الناس جميعاً بفقرتهم إلى الله وحاجتهم الدائمة إلى فضله في كل أمر من أمورهم ، ويبين لهم قدرته القادرة على أن يذهبهم جميعاً ويأتي بخلق جديد •

* * *

ج - ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (يونس)
بنداءات أربعة :

النداء الأول هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٣﴾

النداء الثاني هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

النداء الثالث هو قول الله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾

النداء الرابع هو قول الله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَلِنَافْسِهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨٨﴾

وظاهر أن مضمون هذه النصوص كلها مما يعم الناس جميعاً ، ولا يخص فئة منهم •

* * *

د — ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (لقمان) بنداء واحد، هو قول الله تعالى :

يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمۡ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَلَدِهِ شَيْئًا ۚ اِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللّٰهِ الْغُرُورُ ﴿١٣﴾

ففي هذا النص دعوة الناس إلى اتقاء عذاب الله ، وخشية يوم الدين ، الذي يجازي فيه الله الناس على أعمالهم ، وهذا المضمون من الأمور الكلية العامة التي تعمّ الناس جميعاً •

* * *

ه — ثم نادى الله الانسان في سورة (الاقطار) بنداء واحد، ونداء الانسان هو نداء للجنس ، فيعم الناس جميعاً • فقال الله تعالى :

يٰۤاَيُّهَا الْاِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيْ اَيِّ صُوْرَةٍ مَّشَاءَ رَّكَبَكَ ﴿٨﴾

وظاهر أن مضمون هذا النصّ يشمل الناس عامة •

* * *

و — ثم نادى الله الانسان في سورة (الانشقاق) بنداء واحد، فقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُلُفِقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينٍ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

فهذا النص خطاب لجنس الانسان الشامل لكل الناس ، فكل إنسان في هذه الحياة كادح ، إلا أنه إما أن يكدح في الخير فيكون من أهل اليمين ، وإما أن يكدح في الشر فيكون من أهل الشمال .

* * *

كل هذه النداءات التي سبق ذكرها قد كانت في العهد المكي ، أمّا في العهد المدني ، فقد نادى الله الناس جميعاً بالنداءات التالية :

ز — ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (البقرة) بنداءين :
النداء الأول هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْ
 بِهِ مِنَ النَّعْمَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

النداء الثاني هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ
 إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

وظاهر أن هذين النصين يتضمنان بيانات تعم الناس جميعاً .

* * *

ح - ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (النساء)
 بنداءات أربعة :

النداء الأول هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

النداء الثاني هو قول الله تعالى :

إِنْ يَسْأَلْكُمْ أَهْلُ النَّاسِ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^٤ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٦٦﴾

النداء الثالث هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَاعْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ^٥
وَلَا تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^٦ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٧﴾

النداء الرابع هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٦٨﴾

وكل هذه النصوص تتضمن مضامين تشمل الناس جميعاً .

* * *

ط - ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (الحج)
بنداءات أربعة :

النداء الأول هو قول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ^٧ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى
وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

النداء الثاني هو قول الله تعالى :

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَسَاكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾
ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٥٢﴾

النداء الثالث هو قول الله تعالى :

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٣﴾ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

النداء الرابع هو قول الله تعالى :

يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٥٦﴾

وظاهر أن مضامين هذه النصوص تشمل الناس جميعاً ،
فهي تدور حول القضايا الكلية للإيمان •

* * *

ي — وأخيراً نادى الله الناس جميعاً بنداء واحد في سورة
(الحجرات) وهي سورة نزلت قبل ثماني سور أخيرة نزلت من
القرآن الكريم ، فهي من أواخر ما نزل منه ، وفي هذا النداء
يقول الله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٩﴾

وظاهر أن مضمون هذا النداء الأخير يشمل الناس جميعاً •

* * *

ثانياً : ولدى تبّع النصوص القرآنية المصدرية بخطاب
المؤمنين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » نلاحظ أن مضمون هذه
النصوص يشتمل على معان تخصّ الذين آمنوا ، وما يؤمرون به ،
وما يَنْهَوْنَ عنه ، وما يُحذَرُونَ منه ، وما يُوجَّهُونَ له ،
وما يُوصَوْنَ به ، ونحو ذلك •

ونداءات الله للذين آمنوا كثيرة جداً بلغت (٨٩) نداءً ،

مصدرة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » • والذي يلفت
النظر أنها جميعاً مدنية • أوائلها ما جاء في سورة البقرة باستثناء
آية المداينة منها التي نزلت في حجة الوداع في منى ، وهي أيضاً
مصدرة بـ « يا أيها الذين آمنوا » • وأواخرها ما جاء في سورة
التوبة • فأية المداينة آخر ما نزل من نداءات الله للذين آمنوا
على ما يظهر •



القاعدة السابعة والعشرون

« حول التعليل بعد النهي أو النفي أو الأمر »

التعليل بعد النهي أو النفي أو الأمر قد يكون تعليلًا للفعل وقد يكون تعليلًا للترك ، وذلك لأنّ النهي أو النفي أو الأمر كل منها يتضمن وجهين :

الأول : وجه الترك .

الثاني : وجه الفعل .

وكل من هذين الوجهين يصلح ما ينجم عنه من خير أو شر ، وحسن أو قبيح ، للتعليل .

فيقال : لا تفعل ، لأنّ الفعل ضارٌّ أو قبيح . أو لأن ترك الفعل نافع أو حسن .

ويقال : لم أفعل ، لأنّ الفعل ضارٌّ أو قبيح . أو لأن ترك الفعل نافع أو حسن .

ويقال : افعل ، لأنّ الفعل نافع أو حسن . أو لأن ترك الفعل ضارٌّ أو قبيح .

وقد يأتي التعليل في النصوص القرآنية غير مبين فيه وجه

التعليل ، هل هو للفعل أو هو للترك • وعندئذٍ لا بدّ من النظر في المعنى الذي اشتمل عليه التعليل ، والملاءمة بينه وبين المعلل ، فإن كان علّة للترك قدّر في الكلام ما يلائمه ، وإن كان علّة للفعل قدّر أيضاً في الكلام ما يلائمه •

* * *

الأمثلة :

من الأمثلة على ذلك قول الله تعالى في سورة (البقرة) :
 وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

« أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا » تعليل للنهي السابق ، وبقليل من التأمل يظهر لنا أنه تعليل للترك ، أي لعدم جعل الله عرضة للإيمان • فينبغي أن نقدّر في الكلام ما يلائم هذا •

إذن نقول في التقدير : لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم رغبة أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس •

ولو كان النص على نحو : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تقعوا في الإثم • لكان التقدير : خشية أن تقعوا في الإثم •

* * *

ومن الأمثلة قول الله تعالى في سورة (الحجرات) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصْحِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١٠١﴾

فالتعليل هنا بيان عاقبة ترك المأمور به ، فمن ترك التبيّن
ربما وقع في الندامة بسبب أنه أصاب قوماً برآء فاتهمهم بما لم
يفعلوا • فالتقدير هنا ينبغي أن يكون مناسباً للترك لا للفعل، فيقال:
فتبيّنوا خشية أن تصيبوا قوماً برآء بجهالة فتصححوا على
ما فعلتم نادمين •

* * *

خاتمة

أخي القارئ كتبت هذه القواعد بعد أن كنت دوّنتها
ملاحظات خلال ممارستي الطويلة لتدبّر كتاب الله ، ومطالعة كتب
التفسير ، وقراءة مفاهيم كثير من متدبّري هذا الكتاب العظيم
المجيد الذي لا تفنى أعاجيبه ، ولا يَخْلُقُ على كثرة الردّ .

فأرجو أن أكون قد وفّقت فيها إلى قواعد تهدي المتدبرين ،
وأن تكون هذه القواعد فاتحة لبناء « علم التدبّر » على ما يرضي
الله تعالى ، عسى أن تكون وسيلة تسديد وهداية ، للباحثين
الحريصين على فهم كتاب الله ، وما تضمنه من علم جليل
وهداية عظيمة .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل والحمد لله ربّ
العالمين . وكان الفراغ منه في غرة شهر رمضان المبارك لعام ١٣٩٩
من هجرة مبلغ الكتاب المجيد عن ربه ، سيدنا ومولانا محمد بن
عبد الله ﷺ .

مكة المكرمة في : ٢ رمضان ١٣٩٩ هجرية
و ٢٦ تموز ١٩٧٩ ميلادية

عبد الرحمن حسن حنكة الميداني

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣

المقدمة

(القاعدة الأولى) حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع

السورة ، وارتباطها الموضوعي بما تفرّق في القرآن ٩

(القاعدة الثانية) حول وحدة موضوع السورة القرآنية ١٦

(القاعدة الثالثة) حول أوجه النصّ التي يهدف إليها ٢١

(القاعدة الرابعة) حول بيئة نزول النصّ البشرية والزمانية

٢٣

والمكانية

(القاعدة الخامسة) حول التفسيرات الجزئية والمعنى الكلي ٢٦

(القاعدة السادسة) حول البحث في معاني الكلمات القرآنية ٣٠

(القاعدة السابعة) حول تكامل النصوص القرآنية في

الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن ٣٨

(القاعدة الثامنة) حول تكافؤ النصوص القرآنية إلاّ

ما ثبت نسخه بقاطع ، ولزوم الجمع بينها ٥٠

(القاعدة التاسعة) حول تتبع مراحل التنزيل ٥٥

(القاعدة العاشرة) حول البحث عن المحاذيف للايجاز ٦٩

(القاعدة الحادية عشرة) حول أن القرآن لا اختلاف فيه

ولا تناقض ٨١

(القاعدة الثانية عشرة) حول تتبع التفسير المأثور لمعنى

النصّ ٨٨

(القاعدة الثالثة عشرة) حول البحث عن أغراض الاختلاف

في التعبير في مختلف النصوص ٩٠

- (القاعدة الرابعة عشرة) حول النظر فيما ورد من أسباب النزول ٩٦
- (القاعدة الخامسة عشرة) حول التكرير وأغراضه ٩٩
- (القاعدة السادسة عشرة) حول النظر فيما توصلت إليه البحوث العلمية الانسانية في موضوع النصّ القرآني ١٠٩
- (القاعدة السابعة عشرة) حول الربط بين الآيات وخواتيمها ١١٣
- (القاعدة الثامنة عشرة) حول النظر في الالفاظ المتقاربة المعنى أو المترادفة ١١٧
- (القاعدة التاسعة عشرة) حول تردد النصّ القرآني بين دلالتين أو أكثر ١٢٢
- (القاعدة العشرون) حول مراعاة ظاهرة التضمين ١٤١
- (القاعدة الحادية والعشرون) حول النظر في ملائمة الأسلوب البياني للهدف منه ١٤٤
- (القاعدة الثانية والعشرون) حول البحث عن الوجوه البلاغية والفرض الفكري من الصور البلاغية في القرآن ١٤٩
- (القاعدة الثالثة والعشرون) حول ضرورة ملاحظة قواعد اللغة العربية ١٥١
- (القاعدة الرابعة والعشرون) حول النصّ واقتضاءاته ١٥٥
- (القاعدة الخامسة والعشرون) حول كون النصّ محكماً أو منسوخاً ١٥٨
- (القاعدة السادسة والعشرون) حول النظر في توجيه الخطاب ١٦٠
- (القاعدة السابعة والعشرون) حول التعليل بعد النهي أو النفي أو الأمر ١٧١
- خاتمة ١٧٤

هذا الكتاب

لا بد للمسلم الذي يتلو كتاب الله الذي أنزله على رسوله معجزة كبرى له ، لا بد له أن يتدبر آيات هذا الكتاب العظيم ، فيفهم كلام الله ، ويتعظ به ، ويعمل بموجبه ، فالكتاب العزيز أنزل لهذا « كتاب » أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب » .

ولا بد أن يريد أن يتدبر كلام الله عز وجل من معالم تكشف له الطريق ، وتثير له الدرب ، وما هذه المعالم إلا قواعد علمية توافر على اكتشافها أعلام الاسلام من مفسرين ومفكرين ، قدماء ومحدثين .

وفي هذا الكتاب جملة من القواعد الممتازة اهتدى إليها العالم الباحث الأستاذ عبد الرحمن الميداني ، وتكشفت له خلال ممارسته الطويلة لتدبر كلام الله عز وجل ومطابقة كتب المفسرين ، وهو يقدمها هدية لكل مسلم يريد أن يقترب من بحر القرآن الزاخر ، وأن يقتبس من فيوضه الثرة . ويسعد دار القلم أن تقدم لقرائها هذه التحفة العلمية القيمة ، والله يتولى عباده الصالحين .

مصطفى بري

الطبعة : ٧٠٠ ق.ل

تطلب جميع كتبنا من

دمشق - دار القلم - حلبوني - ص ٤٥٢٣

بيروت - الشركة المتحدة ص ٧٤٦٠